أمثال المسيح

د. القس منيس عبد النور

الجزء الثالث
مسؤوليات أبناء ملكوت الله

الفهرس

هذا الكتاب
مقدمة
لماذا علَّم المسيح بأمثال؟
كيف نفسِّر الأمثال؟

الجزء الأول: طبيعة ملكوت الله

1- الملكوت انتقال إلى حالة جديدة

(أ) الملكوت حياة جديدة: مثلاً الرُّقعة، والزِّقاق
مناسبة رواية المثلين
سؤالان وجواب المسيح عليهما
لماذا يصوم الفريسيون؟
لماذا يصوم تلاميذ يوحنا؟
لماذا لا يصوم تلاميذ المسيح؟
متى يصوم تلاميذ المسيح؟
أولاً: الحاجة إلى خَلْقٍ جديد
ثانياً: الحاجة إلى تعليم جديد
ثالثاً: جاء المسيح بالخَلْق والتعليم الجديدين
(ب) الملكوت تعليم جديد: مَثَل الكاتب المتعلم
أولاً: صفات الكاتب المتعلم
ثانياً: عمل الكاتب المتعلم
(جـ) دعوتان واستجابتان: مَثَل الأولاد الذين يلعبون في السوق
أولاً: دعوتان
ثانياً: استجابتان

2- تشبيهات لملكوت الله

(أ) أراضي الملكوت: مَثَل الزارع
أولاً: البذور التي سقطت على الطريق. البذور المسروقة
ثانياً: البذور التي سقطت على الحجر. البذور العطشانة
ثالثاً: البذور التي سقطت على الشوك. البذور المخنوقة
رابعاً: البذور التي سقطت على الأرض الجيدة. البذور المثمرة
(ب) أعداء الملكوت: مثلا الزوان وسط الحنطة، والشَّبكة في البحر
أولاً: وجود الجيد والرديء
ثانياً: ماذا يُفعل بالزرع الرديء؟
ثالثاً: مصير الحنطة ومصير الزوان.

(جـ) نمو الملكوت: مثل البذور التي تنمو سراً

أولاً: الله والإنسان يعملان معاً

ثانياً: الله يعمل في صمت

ثالثاً: الله يعمل بتأنٍّ

رابعاً: الله يبدأ عمله ويكمله

(د) قوة الملكوت: مثلا حبة الخردل، والخميرة.

أولاً: بداية الملكوت سماوية

ثانياً: بداية الملكوت صغيرة

ثالثاً: بداية الملكوت هادئة

رابعاً: بداية الملكوت فعَّالة

(هـ) عظمة قيمة الملكوت: مثلا الكنز المخفَى، واللؤلؤة الثمينة

أولاً: الذين يطلبهم المسيح

ثانياً: الذين يطلبون المسيح

3- الآب يطلب أبناء لملكوته

(أ) التفتيش عن الضال: مثلا الخروف الضائع، والدرهم المفقود

أولاً: الضياع المؤلم

ثانياً: التفتيش الجاد

ثالثاً: حفل الابتهاج

(ب) انتظار عودة الضال: مثلا الابنين الأكبر، والأصغر

أولاً: الضال

ثانياً: الابن الأكبر

ثالثاً: الأب

الجزء الثاني: امتيازات أبناء ملكوت الله

1- امتياز غفران الخطايا: مَثل المديونَين

مناسبة رواية المثل

أولاً: كلنا مديونون

ثانياً: الخدمة تعبير عن المحبة

2- امتياز سكنى المسيح: مَثل البيت العامر بالمسيح

مناسبة رواية المثل

ماذا قصد المسيح بهذا المثل؟

أولاً: إخلاء البيت ثم تسكينه

ثانياً: الحذر من عودة الساكن الأول

ثالثاً: بقاء المالك الجيد

3- امتياز الحياة ذات التحدِّيات: مثلا البرج المُكمَل، والملك المستعد للحرب

أولاً: هدفنا أن نبني وننتصر

ثانياً: يجب أن نحسب التكلفة

ثالثاً: نصائح أساسية للبناء

4- امتياز الحكمة: مثَل البناء الحكيم

أولاً: أساسان وبِناءان

ثانياً: امتحان حتمي

ثالثاً: نتيجتان

5- امتياز الثمر: مَثل شجرة التين

مناسبة رواية المثل

لماذا اشتكوا للمسيح؟

أولاً: مع كل امتياز مسئولية

ثانياً: يمنحنا الله فرصة ثانية

6- امتياز الصلاة: مثلا صديق نصف الليل، والأرملة المُلحَّة

أولاً: احتياج شديد

ثانياً: طلب بلجاجة

ثالثاً: استجابة مفرحة

تأخير استجابة الصلاة

7- امتياز الفرح: مَثل العشاء العظيم

مناسبة رواية المثل

أولاً: ملكوت الله وليمة

ثانياً: الذين يرفضون الوليمة

ثالثاً: الذي يدعو للوليمة

8- امتياز المجازاة

(أ) المجازاة للجميع: مَثل العاملين في ساعات مختلفة

مناسبة رواية المثل

أولاً: كل من يدعو الرب يخلُص

ثانياً: تحذير من التذمُّر

ثالثاً: تحذير من الكسل

(ب) المجازاة للساهرين: مَثل العذارى الحكيمات

مناسبة رواية المثل

أولاً: أفراح ملكوت الله

ثانياً: المسيح آتٍ ثانية

ثالثاً: حاضرنا يحدِّد مستقبلنا

(جـ) المجازاة للعاملين: مثل الوزنات

مناسبة رواية المثل

أولاً: كلنا وكلاء

ثانياً: العاملون

ثالثاً: الخاملون

الجزء الثالث: مسؤوليات أبناء ملكوت الله

1- ضرورة العمل

(أ) العمل واجب: مَثَل العبد العامل

أولاً: أنت عبدٌ للرب

ثانياً: خدمة الملكوت مكلِّفة

ثالثاً: خدمة الملكوت واجب

(ب) الجميع يعملون: مَثَل السامري الصالح

أولاً: الذين سلبهم الآخرون

ثانياً: الذين يسلبون الآخرين

ثالثاً: الذين يحافظون على مالهم

رابعاً: الذين يساعدون غيرهم

خامساً: دروس من المثل

(جـ) الأبناء يعملون: مَثَل الابنين

أولاً: التكليف الإلهي

ثانياً: عصيان بالقول لا بالعمل

ثالثاً: طاعة بالقول لا بالعمل

(د) العاملون يعملون: مثَل الكرامين الأردياء

أولاً: صاحب الكرم

ثانياً: الكرامون

2- ضرورة التواضع

(أ) تواضع الاعتراف: مثَل الفريسي والعشار

أولاً: صلاة من يرفع نفسه

ثانياً: صلاة من يضع نفسه

(ب) تواضع السلوك: مثَل المتكأ الأخير

أولاً: مساوئ رفع النفس

ثانياً: بركات وضع النفس

3- ضرورة الغفران: مثَل العبد الذي لم يرحم

مناسبة رواية المثل

أولاً: إفلاسنا الروحي

ثانياً: عظمة المراحم الإلهية

ثالثاً: ضرورة الرحمة

4- ضرورة الأمانة

(أ) الأمانة للنفس: مثَل الغني الغبي

مناسبة رواية المثل

أولاً: إنسان غني

ثانياً: إنسان غبي

(ب) الأمانة للرؤساء: مثَل الوكيل الظالم

أولاً: أهمية الحكمة

ثانياً: أهمية المال

ثالثاً: أهمية الأمانة

رابعاً: أهمية القلب الموحَّد

(جـ) الأمانة للمحتاجين: مثَل الغني ولعاز

مناسبة رواية المثل

أولاً: شخصان في هذا العالم

ثانياً: شخصان في العالم الآخر

1 – ضرورة العمل

(أ) العمل واجب – مثل العبد العامل لوقا 17: 1–10

(ب) الجميع يعملون – مثل السامري الصالح لوقا 10: 25–37

(ج) الأبناء يعملون – مثل الابنين متى 21: 28–32

(د) العاملون يعملون – مثل الكرامين متى 21: 33–41

1- ضرورة العمل

(أ) العمل واجب

مثَل العبد العامل

1وَقَالَ لِتلاَمِيذِهِ: «لاَ يُمْكِنُ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَ الْعَثَرَاتُ، وَلَكِنْ وَيْلٌ لِلَّذِي تَأْتِي بِوَاسِطَتِهِ! 2خَيْرٌ لَهُ لَوْ طُوِّقَ عُنُقُهُ بِحَجَرِ رَحىً وَطُرِحَ فِي الْبَحْرِ مِنْ أَنْ يُعْثِرَ أَحَدَ هؤُلاَءِ الصِّغَارِ. 3اِحْتَرِزُوا لأَنْفُسِكُمْ. وَإِنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ أَخُوكَ فَوَبِّخْهُ، وَإِنْ تَابَ فَاغْفِرْ لَهُ. 4وَإِنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ وَرَجَعَ إِلَيْكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ قَائِلاً: أَنَا تَائِبٌ، فَاغْفِرْ لَهُ». 5فَقَالَ الرُّسُلُ لِلرَّبِّ: «زِدْ إِيمَانَنَا». 6فَقَالَ الرَّبُّ: «لَوْ كَانَ لَكُمْ إِيمَانٌ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ لَكُنْتُمْ تَقُولُونَ لِهذِهِ الْجُمَّيْزَةِ انْقَلِعِي وَانْغَرِسِي فِي الْبَحْرِ فَتُطِيعُكُمْ.

7«وَمَنْ مِنْكُمْ لَهُ عَبْدٌ يَحْرُثُ أَوْ يَرْعَى يَقُولُ لَهُ إِذَا دَخَلَ مِنَ الْحَقْلِ: تَقَدَّمْ سَرِيعاً وَاتَّكِئْ. 8بَلْ أَلاَ يَقُولُ لَهُ: أَعْدِدْ مَا أَتَعَشَّى بِهِ، وَتَمَنْطَقْ وَاخْدِمْنِي حَتَّى آكُلَ وَأَشْرَبَ، وَبَعْدَ ذلِكَ تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ أَنْتَ؟ 9فَهَلْ لِذلِكَ الْعَبْدِ فَضْلٌ لأَنَّهُ فَعَلَ مَا أُمِرَ بِهِ؟ لاَ أَظُنُّ. 10كَذلِكَ أَنْتُمْ أَيْضاً مَتَى فَعَلْتُمْ كُلَّ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فَقُولُوا: إِنَّنَا عَبِيدٌ بَطَّالُونَ، لأَنَّنَا إِنَّمَا عَمِلْنَا مَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْنَا» (لوقا 17: 1-10).

مناسبة رواية المثَل

حدَّث المسيح تلاميذه عن موضوعين أساسيين:

1- أولهما التحذير من تعثير الآخرين: والعثرة تعني «خُطّاف الطُّعم في الفخ» وهي أيضاً العقبات والأحجار التي تعترض طريق التقدُّم الروحي للإنسان، فيعثر ويسقط بسببها. وواضحٌ أننا نحيا في عالم شرير يعيش فيه بشر ميّالون دائماً إلى ارتكاب الخطأ، يعرِّضون تلاميذ المسيح للتعثُّر والسقوط. كما أن تلاميذ المسيح أنفسهم يخطئون أحياناً ويعثِّرون غيرهم، فيرفض غيرهم أن يتبعوا المسيح بحُجَّة أن أتباعه يعثرون ويسقطون مثل غيرهم من الخطاة. وقد شرح المسيح عقوبة من يعثِّر غيره، وقال إنها أشد هولاً من تعليق حجر طاحون كبير في عنق شخص وإلقائه في بحر. ثم حذّر تلاميذه بالقول: «اِحْتَرِزُوا لأَنْفُسِكُمْ » (آية 3).

2- أما الثاني فهو ضرورة الغفران لإخوتنا الذين يسيئون إلينا: وعندما يخطئون نوبِّخهم، فإن احتملوا النوبيخ واعتذروا نغفر لهم. ويؤكد المسيح أننا يجب أن نغفر لهم دائماً، حتى إن أساءوا إلينا سبع مرات في اليوم، واعتذروا سبع مرات في اليوم! وواضح أن هذا لا يعني عدم غفران الخطأ الثامن، لأن المسيح علَّم أن الغفران يكون حتى إلى سبعين مرة سبع مرات (متى 18: 21، 22).

ورأى التلاميذ صعوبة ما طلبه المسيح منهم، وأنه يحتاج إلى إيمان كبير، فقالوا له: «زِدْ إِيمَانَنَا» (لوقا 17: 5)، فأجابهم إن من له إيماناً بمقدار حبة خردل يقدر أن يقتلع شجرة ضخمة ويلقيها في البحر، مشبِّهاً الكراهية حين تتأصل في القلب بشجرة ضخمة ممتدَّة الجذور. ولكن أقل إيمان بقدرة الرب ومعونته يقدر أن يقتلعها ويلقيها في بحر الغفران والنسيان. وليس السر في حجم الإيمان، بل في موضوعه، وهو قدرة الرب، كما أن السر أيضاً في أصالة الإيمان وصدقه في قلب صاحبه.

وقد ضرب المسيح لتلاميذه ولنا مثل «العبد العامل» الذي صار لنا درساً في الطاعة والتواضع لننال رضى الرب ملكنا وسيدنا، لأننا متى فعلنا كل ما أمرنا به (ولن نقدر أن نفعل)، فلنقُل إننا عبيد بطالون غير منتجين، لأننا في أحسن حالاتنا نكون قد عملنا ما كان يجب علينا.

أولاً – أنت عبد للرب

1 – شرف العبودية لله:

يتشرَّف المؤمنون الحقيقيون بأن يكونوا عبيداً للرب. قال النبي داود للرب: «أَنَا عَبْدُكَ ابْنُ أَمَتِكَ» (مزمور 116: 16)، ويقول الوحي المقدس إن موسى كليم الله «عَبْدُ الرَّبِّ» (تثنية 34: 5 و1أخبار 6: 49)، وهكذا وُصف يشوع (يشوع 24: 29)، والنبي إيليا (1ملوك 18: 36)، ودانيال (دانيال 6: 20)، والرسول بولس (رومية 1: 1)، والرسول بطرس (2بطرس 1: 1)، والرسول يعقوب (يعقوب 1: 1). وقد وصفت العذراء مريم نفسها بهذا اللقب عندما قالت للملاك: «هُوَذَا أَنَا أَمَةُ الرَّبِّ» (لوقا 1: 38). وكل الذين يحرِّرهم المسيح من خطاياهم يصبحون عبيداً للمسيح لأنه اشتراهم لله بدمه من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة (رؤيا 5: 9).

وكل مؤمن يستعبد نفسه للرب بكامل رغبته، ويقول له: «أنا محتاج إلى ربوبيَّتك، ولكنك لستَ محتاجاً إلى عبوديتي». وما أسعد من يقول: كنتُ عبداً للخطايا التي سلكت فيها، عاملاً مشيئات جسدي وأفكاري، وكنت ابناً للغضب. لكن الله الذي هو غني في الرحمة، من أجل محبته الكثيرة التي أحبني بها، وأنا ميت بالخطايا، افتداني واشتراني وجعلني ملكاً له. فسأقوم بخدمة سيدي الجديد، لأنه خلقني في المسيح لأعمالٍ صالحة، قد سبق فأعدَّها لكي أسلك فيها (أفسس 2: 1–10).

في هذا المثَل قال المسيح إن ذلك السيد كان له عبد واحد فقط يعمل خارج البيت، وسيده ينتظر منه أن يعمل داخل البيت أيضاً. وهو بهذا يعرِّفنا أن هناك خدمةً مطلوبة من كل مؤمن يحب الرب، يجب أن يقوم بها، وكأنه الإنسان الوحيد المتوافرعلى الأرض للقيام بهذه الخدمة. فياله من شرف للمؤمن!

عندما يكلفك المسيح بخدمة ستتشرَّف بالقيام بها، لأنك تعرف أن هذا التكليف موجَّه لك شخصياً، فلا مجال للتراخي والكسل بحُجَّة أن غيرك يمكن أن يؤديها. وما أعظم الشرف الذي تناله لأن الله اختارك أنت لتؤدي خدمةً خاصةً له.

2 – سبب العبودية لله:

أنت ملكٌ للملك الوحيد، لأسباب كثيرة نذكر منها:

(أ) لأنه خلقك: فقد «جَبَلَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ تُرَاباً مِنَ الأَرْضِ وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ، فَصَارَ آدَمُ نَفْساً حَيَّةً» (تكوين 2: 7). إنه الخالق الماهر الذي صنع الإنسان وأبدعه على صورته، فالإنسان على صورة الرحمان. والخالق يملك ما خلق. «لِلرَّبِّ الأَرْضُ وَمِلْؤُهَا، الْمَسْكُونَةُ وَكُلُّ السَّاكِنِينَ فِيهَا» (مزمور 24: 1).

(ب) لأنه فداك: عصى آدم ربه، واختبأ منه لأنه وجد نفسه عارياً، ولكن الرب في محبته لم يتركه في عريه وخجله وهروبه، بل جاءه وفداه وستره. وهذا ما فعله المسيح الفادي ويقدمه لكل من يؤمن به. «عَالِمِينَ أَنَّكُمُ افْتُدِيتُمْ لاَ بِأَشْيَاءَ تَفْنَى، بِفِضَّةٍ أَوْ ذَهَبٍ، مِنْ سِيرَتِكُمُ الْبَاطِلَةِ الَّتِي تَقَلَّدْتُمُوهَا مِنَ الآبَاءِ، بَلْ بِدَمٍ كَرِيمٍ، كَمَا مِنْ حَمَلٍ بِلاَ عَيْبٍ وَلاَ دَنَسٍ، دَمِ الْمَسِيحِ، مَعْرُوفاً سَابِقاً قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، وَلَكِنْ قَدْ أُظْهِرَ فِي الأَزْمِنَةِ الأَخِيرَةِ مِنْ أَجْلِكُمْ» (1بطرس 1: 18–20).. «أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ جَسَدَكُمْ هُوَ هَيْكَلٌ لِلرُّوحِ الْقُدُسِ الَّذِي فِيكُمُ، الَّذِي لَكُمْ مِنَ اللهِ، وَأَنَّكُمْ لَسْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ؟ لأَنَّكُمْ قَدِ اشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ، فَمَجِّدُوا اللهَ فِي أَجْسَادِكُمْ وَفِي أَرْوَاحِكُمُ الَّتِي هِيَ لِلَّهِ» (1كورنثوس 6: 19، 20).

ويمكن أن نشرح الفداء بصورتين:

* صورة مديون عجز عن سداد دينه، فباعه المداين واشتراه السيِّد، فصار ملكاً لسيده.
* صورة أسير حرب، دفع شخصٌ كريم فدية لإطلاقه حراً، فأصبح مِلكاً لمن فكَّ أسره.

وفي الحالتين اختار المديون أو الأسير بمحض إرادته أن يستمر عبداً للسيد الذي افتداه. وحتى عندما عُرضت عليه الحرية قال: «أُحِبُّ سَيِّدِي. لا أَخْرُجُ حُرًّا» (خروج 21: 5)، لأنه يرى أن الحرية الحقيقية هي في العبودية للسيد الكريم الذي اشترى وفدى وحرَّر!

(ج) لأنه يعتني بك: خلقك فأنت له، واشتراك بفدائه، وهو يعتني بك دائماً، فأنت به تحيا وتتحرك وتوجد (أعمال 17: 28). لقد أعطاك الجسد ويمنحك كل ما يحفظ هذا الجسد من طعام تأكله، وماء تشربه، وهواء تتنفسه، وكساء يسترك. وينصحنا المسيح: «لاَ تَهْتَمُّوا لِحَيَاتِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَبِمَا تَشْرَبُونَ، وَلاَ لأَجْسَادِكُمْ بِمَا تَلْبَسُونَ. أَلَيْسَتِ الْحَيَاةُ أَفْضَلَ مِنَ الطَّعَامِ، وَالْجَسَدُ أَفْضَلَ مِنَ اللِّبَاسِ؟.. وَلِمَاذَا تَهْتَمُّونَ بِاللِّبَاسِ؟ تَأَمَّلُوا زَنَابِقَ الْحَقْلِ كَيْفَ تَنْمُو! لاَ تَتْعَبُ وَلاَ تَغْزِلُ. وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ وَلاَ سُلَيْمَانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا» (متى 6: 25، 28، 29).

ويقول الرسول بولس لكل إنسان: «أَيُّ شَيْءٍ لَكَ لَمْ تَأْخُذْهُ؟» (1كورنثوس 4: 7)، فكل ما عندنا عطية كريمة من الله. وعندما يأمرك: «تَمَنْطَقْ وَاخْدِمْنِي» لا يظلمك، ولا يطلب منك ما لا يحقّ له، ولا يكلفك بما لا طاقة لك به، فإن منه جميع ما عندك، ومن فضله تخدمه. وعندما يأمرك: «أَعْدِدْ مَا أَتَعَشَّى بِهِ.. حَتَّى آكُلَ وَأَشْرَبَ» تعرف أنه ينتظر أن يتناول من يدك ما يشبع نفسه ويسر قلبه.

3 – أولوية الخدمة لله: يضع العبد الصالح ربَّه أولاً، ويضع نفسه أخيراً. فسيده يأكل أولاً «وَبَعْدَ ذَلِكَ تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ أَنْتَ». الرب أولاً، وخدمته قبل كل شيء، وسعيد هو الذي يطلب أولاً ملكوت الله وبره، فيُزيده الله من كل شيء، كما فعلت أرملة صرفة، وأطاعت طلبة إيليا: «اعْمَلِي لِي مِنْهَا كَعْكَةً صَغِيرَةً أَوَّلاً وَاخْرُجِي بِهَا إِلَيَّ، ثُمَّ اعْمَلِي لَكِ وَلابْنِكِ أَخِيراً» (1ملوك 17: 13). ولما أطاعت لم يفرغ كوَّار الدقيق ولم ينقص كوز الزيت (1ملوك 17: 16).

لا تتقاعس ولا تؤجل خدمة الرب. وكعبدٍ عامل عنده في الحقل والبيت قُل له قولة يشوع: «بِمَاذَا يُكَلِّمُ سَيِّدِي عَبْدَهُ؟» (يشوع 5: 14)، وقولة بولس: «يَا رَبُّ، مَاذَا تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ؟» (أعمال 9: 6)، لأنه رسم لحياتك خطة وهدفاً، وعيَّن لك موقعاً محدداً، ومنحك مواهب ومعرفة لتأدية هذا التكليف على خير وجه.

فماذا يحدث عندما يقصِّر العبد في القيام بواجبه؟

يكلف السيد عبداً آخر ليؤدي العمل، فيخسر المتقاعس أجره، ويحرم نفسه من بركة الخدمة، بل ويعرِّض نفسه للعقاب.

وقد أعطانا المسيح النموذج الذي نتبعه في التواضع والخدمة عندما غسل أرجل تلاميذه، وقال: «فَإِنْ كُنْتُ وَأَنَا السَّيِّدُ وَالْمُعَلِّمُ قَدْ غَسَلْتُ أَرْجُلَكُمْ، فَأَنْتُمْ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ يَغْسِلَ بَعْضُكُمْ أَرْجُلَ بَعْضٍ، لأَنِّي أَعْطَيْتُكُمْ مِثَالاً حَتَّى كَمَا صَنَعْتُ أَنَا بِكُمْ تَصْنَعُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً. اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ، وَلاَ رَسُولٌ أَعْظَمَ مِنْ مُرْسِلِهِ» (يوحنا 13: 14–16).

ثانياً – خدمة الملكوت مكلِّفة

1– تتطلَّب الخدمة تكريساً:

محبة الله لنا عظيمة، وقد كلَّفته الكثير «لأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ» (يوحنا 3: 16). ومحبتنا لله وعبوديتنا له تطالباننا بالتكريس الكامل، طاعة للأمر الإلهي: «فَأَطْلُبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ بِرَأْفَةِ اللهِ أَنْ تُقَدِّمُوا أَجْسَادَكُمْ ذَبِيحَةً حَيَّةً مُقَدَّسَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللهِ، عِبَادَتَكُمُ الْعَقْلِيَّةَ» (رومية 12: 1) فنقول: «لأَنَّنَا إِنْ عِشْنَا فَلِلرَّبِّ نَعِيشُ، وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَمُوتُ. فَإِنْ عِشْنَا

وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَحْنُ» (رومية 14: 8). ولا يمكن أن نخدم الله ونخدم سيداً آخر معه، فالخدمة دائماً لسيد واحد، فلا نعرج بين فرقتين.

2 – تتطلَّب الخدمة استمراراً:

يعمل العبد في الليل والنهار، كما قال أيوب: «بِخَطَوَاتِهِ اسْتَمْسَكَتْ رِجْلِي. حَفِظْتُ طَرِيقَهُ وَلَمْ أَحِدْ» (أيوب 23: 11)، وكما قال الرسول بولس لقسوس كنيسة أفسس: «أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ دَخَلْتُ أَسِيَّا كَيْفَ كُنْتُ مَعَكُمْ كُلَّ الزَّمَانِ أَخْدِمُ الرَّبَّ بِكُلِّ تَوَاضُعٍ وَدُمُوعٍ كَثِيرَةٍ، وَبِتَجَارِبَ أَصَابَتْنِي بِمَكَايِدِ الْيَهُودِ. كَيْفَ لَمْ أُؤَخِّرْ شَيْئاً مِنَ الْفَوَائِدِ إِلاَّ وَأَخْبَرْتُكُمْ، وَعَلَّمْتُكُمْ بِهِ جَهْراً وَفِي كُلِّ بَيْتٍ.. وَلَكِنَّنِي لَسْتُ أَحْتَسِبُ لِشَيْءٍ، وَلاَ نَفْسِي ثَمِينَةٌ عِنْدِي، حَتَّى أُتَمِّمَ بِفَرَحٍ سَعْيِي وَالْخِدْمَةَ الَّتِي أَخَذْتُهَا مِنَ الرَّبِّ يَسُوعَ، لأَشْهَدَ بِبِشَارَةِ نِعْمَةِ اللهِ.. احْتَرِزُوا إِذاً لأَنْفُسِكُمْ وَلِجَمِيعِ الرَّعِيَّةِ الَّتِي أَقَامَكُمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ فِيهَا أَسَاقِفَةً لِتَرْعُوا كَنِيسَةَ اللهِ الَّتِي اقْتَنَاهَا بِدَمِهِ.. لِذَلِكَ اسْهَرُوا مُتَذَكِّرِينَ أَنِّي ثَلاَثَ سِنِينَ لَيْلاً وَنَهَاراً لَمْ أَفْتُرْ عَنْ أَنْ أُنْذِرَ بِدُمُوعٍ كُلَّ وَاحِدٍ» (أعمال 20: 18–20، 24، 28، 31). «لِذَلِكَ نَحْنُ أَيْضاً إِذْ لَنَا سَحَابَةٌ مِنَ الشُّهُودِ مِقْدَارُ هَذِهِ مُحِيطَةٌ بِنَا، لِنَطْرَحْ كُلَّ ثِقْلٍ وَالْخَطِيَّةَ الْمُحِيطَةَ بِنَا بِسُهُولَةٍ، وَلْنُحَاضِرْ بِالصَّبْرِ فِي الْجِهَادِ الْمَوْضُوعِ أَمَامَنَا» (عبرانيين 12: 1).

3 – تتطلَّب الخدمة إنكار ذات:

ولنا في يوحنا المعمدان مَثَل عظيم في إنكار الذات، لأنه عندما سمع من تلاميذه أن المسيح يعمد، قال: «يَنْبَغِي أَنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ، وَأَنِّي أَنَا أَنْقُصُ» (يوحنا 3: 30).

العبد الصالح هو الذي يؤجل راحته ليريح سيده. قال المسيح لأحدهم: «اتْبَعْنِي». فَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، ائْذَنْ لِي أَنْ أَمْضِيَ أَوَّلاً وَأَدْفِنَ أَبِي». فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لَيْسَ أَحَدٌ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْمِحْرَاثِ وَيَنْظُرُ إِلَى الْوَرَاءِ يَصْلُحُ لِمَلَكُوتِ اللهِ» (لوقا 9: 59–62). وهذا ما فعله الرسول بولس فحقَّ له أن يقول: «حَامِلِينَ فِي الْجَسَدِ كُلَّ حِينٍ إِمَاتَةَ الرَّبِّ يَسُوعَ، لِكَيْ تُظْهَرَ حَيَاةُ يَسُوعَ أَيْضاً فِي جَسَدِنَا. لأَنَّنَا نَحْنُ الأَحْيَاءَ نُسَلَّمُ دَائِماً لِلْمَوْتِ مِنْ أَجْلِ يَسُوعَ، لِكَيْ تَظْهَرَ حَيَاةُ يَسُوعَ أَيْضاً فِي جَسَدِنَا الْمَائِتِ.. لأَنَّ خِفَّةَ ضِيقَتِنَا الْوَقْتِيَّةَ تُنْشِئُ لَنَا أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ ثِقَلَ مَجْدٍ أَبَدِيّاً. وَنَحْنُ غَيْرُ نَاظِرِينَ إِلَى الأَشْيَاءِ الَّتِي تُرَى، بَلْ إِلَى الَّتِي لاَ تُرَى. لأَنَّ الَّتِي تُرَى وَقْتِيَّةٌ، وَأَمَّا الَّتِي لاَ تُرَى فَأَبَدِيَّةٌ» (2كورنثوس 4: 10، 11، 17، 18).

4 – تتطلب الخدمة اتِّساع رؤية:

يطالبنا المسيح أن نعمل في بيته وفي حقله. أما بيته فهو الكنيسة، وأما حقله فهو العالم، لأن له فيه خرافاً أُخر يجب أن يُؤتى بها لتكون رعية واحدة لراعٍ واحد (يوحنا 10: 16).

في الكنيسة نجتهد أن نحافظ على الوحدة والسلام «لأَنَّنَا أَعْضَاءُ جِسْمِهِ، مِنْ لَحْمِهِ وَمِنْ عِظَامِهِ» (أفسس 5: 30)، استجابةً لطلبة المسيح: «أَيُّهَا الآبُ الْقُدُّوسُ، احْفَظْهُمْ فِي اسْمِكَ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي، لِيَكُونُوا وَاحِداً كَمَا نَحْنُ.. لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِداً كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ، لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضاً وَاحِداً فِينَا، لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي» (يوحنا 17: 11، 21). «وَالْمُبَاحَثَاتُ الْغَبِيَّةُ وَالسَّخِيفَةُ اجْتَنِبْهَا، عَالِماً أَنَّهَا تُوَلِّدُ خُصُومَاتٍ، وَعَبْدُ الرَّبِّ لاَ يَجِبُ أَنْ يُخَاصِمَ، بَلْ يَكُونُ مُتَرَفِّقاً بِالْجَمِيعِ، صَالِحاً لِلتَّعْلِيمِ، صَبُوراً عَلَى الْمَشَقَّاتِ» (2تيموثاوس 2: 23، 24).

وفي الكنيسة يجب أن نكون قدوة حسنة لسائر العبيد عملاً بالوصية الرسولية: «كُنْ قُدْوَةً لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْكَلاَمِ، فِي التَّصَرُّفِ، فِي الْمَحَبَّةِ، فِي الرُّوحِ، فِي الإِيمَانِ، فِي الطَّهَارَةِ» (1تيموثاوس 4: 12).

أما في العالم فدورنا هو الكرازة، طاعة للوصية: «فَاذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الأُمَمِ، وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ. وَعَلِّمُوهُمْ أَنْ يَحْفَظُوا جَمِيعَ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ. وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ» (متى

28: 19، 20). وعند طاعة هذه الوصية تقدر أن تقول: «قَدْ جَاهَدْتُ الْجِهَادَ الْحَسَنَ، أَكْمَلْتُ السَّعْيَ، حَفِظْتُ الإِيمَانَ، 8وَأَخِيراً قَدْ وُضِعَ لِي إِكْلِيلُ الْبِرِّ، الَّذِي يَهَبُهُ لِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الرَّبُّ الدَّيَّانُ الْعَادِلُ، وَلَيْسَ لِي فَقَطْ، بَلْ لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ ظُهُورَهُ أَيْضاً» (2تيموثاوس 4: 7، 8).

ثالثاً – خدمة الملكوت واجب

بعد أن روى المسيح مثل العبد العامل في الحقل والبيت، قال: «مَتَى فَعَلْتُمْ كُلَّ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فَقُولُوا: إِنَّنَا عَبِيدٌ بَطَّالُونَ، لأَنَّنَا إِنَّمَا عَمِلْنَا مَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْنَا» (آية10).

1 – الخدمة واجب العبد المتواضع:

ليس للعبد فضل في خدمة سيده، فمتى تمَّم كل المطلوب منه يعترف أنه لم يفعل شيئاً يستحق عليه الشكر، لأنه إنما قام فقط بالواجب عليه. فلا فضل للإنسان في أية خدمة يؤديها لله، لأن الله مصدر كل خير عند الإنسان. خدم العبد سيده بقدر طاقته ومعرفته، وقال: «عَمِلْنَا مَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْنَا» لأنه تعلَّم من قول المسيح للآب السماوي: «أَنَا مَجَّدْتُكَ عَلَى الأَرْضِ. الْعَمَلَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لأَعْمَلَ قَدْ أَكْمَلْتُهُ» (يوحنا 17: 4).

عندما يتبرع محسنٌ غني ببناء مستشفى لا يعود الفضل في البناء للعمال الذين قاموا بالبناء، بل يعود كله للمتبرع، ويكتفي العمال بالقول: «لأَنَّنَا إِنَّمَا عَمِلْنَا مَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْنَا». والمسيح يحذرنا من الفخر، ويعلمنا التواضع، وهذا حال الإنسان الذي سما في حياته الروحية وتقدم في الإيمان، وهو ما اختبره الرسول بولس الذي قال في بدء حياته الإيمانية إنه أصغر الرسل (1كورنثوس 15: 9) و«لَمْ أَنْقُصْ شَيْئاً عَنْ سَائِرِ الرُّسُلِ» (2كورنثوس 12: 11)، ثم ارتقى فقال إنه «أَصْغَرُ جَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ» (أفسس 3: 8)، ثم ارتقى أكثر فقال: «الْخُطَاةُ الَّذِينَ أَوَّلُهُمْ أَنَا» (1تيموثاوس 1: 15). لقد تدرج في التواضع، وهكذا يجب أن نفعل نحن، كما قال القديس فرنسيس الأسيسي عندما سُئل عن رأيه في نفسه، فقال: «أنا أكبر خاطئ في العالم، وأنا أخدم الله أقل من أي شخص آخر في العالم».

2 – للخدمة مجازاة عظيمة:

«طُوبَى لأُولَئِكَ الْعَبِيدِ الَّذِينَ إِذَا جَاءَ سَيِّدُهُمْ يَجِدُهُمْ سَاهِرِينَ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ يَتَمَنْطَقُ وَيُتْكِئُهُمْ وَيَتَقَدَّمُ وَيَخْدِمُهُمْ» (لوقا 12: 37). ما أعظم سعادة من يقوم بعمله كاملاً! إن السيد يتمنطق ويتكئهم، ويتقدم ويخدمهم، وهو أمر غير مألوف، ولا يخطر على بال العبد، لكنه من أمجد مواعيد المسيح للمؤمنين، فهو يعني أنه يمنح العبد الساهر العامل الأمين أسمى شرف ومجد، كما قال المرنم للرب: «تُرَتِّبُ قُدَّامِي مَائِدَةً تُجَاهَ مُضَايِقِيَّ. مَسَحْتَ بِالدُّهْنِ رَأْسِي. كَأْسِي رَيَّا» (مزمور 23: 5). إن رب البيت يخدم ضيوفه، فتكتمل سعادتهم لأن سيدهم يخدمهم!

هذا المثل يشجعنا أن نخدم الرب بكل قوتنا، وفي كل وقت، عالمين أن جزاءنا العظيم آتٍ من يدي سيدنا المبارك الأمين في مواعيده، والذي لا يمكن أن يكون مديوناً لأحد، فقد قال: «مَنْ وَجَدَ حَيَاتَهُ يُضِيعُهَا، وَمَنْ أَضَاعَ حَيَاتَهُ مِنْ أَجْلِي يَجِدُهَا.. مَنْ يَقْبَلُ نَبِيّاً بِاسْمِ نَبِيٍّ فَأَجْرَ نَبِيٍّ يَأْخُذُ، وَمَنْ يَقْبَلُ بَارّاً بِاسْمِ بَارٍّ فَأَجْرَ بَارٍّ يَأْخُذُ، وَمَنْ سَقَى أَحَدَ هؤُلاَءِ الصِّغَارِ كَأْسَ مَاءٍ بَارِدٍ فَقَطْ بِاسْمِ تِلْمِيذٍ فَالْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ لاَ يُضِيعُ أَجْرَهُ» (متى 10: 39، 41، 42).

سؤالان

1 – لماذا يدعو المؤمن الرب سيده، ويدعو نفسه عبده؟

2 – اذكر ثلاثة أمور تتطلبها خدمتنا لله.

1- ضرورة العمل

(ب) الجميع يعملون

مثل السامري الصالح

25وَإِذَا نَامُوسِيٌّ قَامَ يُجَرِّبُهُ قَائِلاً: «يَا مُعَلِّمُ، مَاذَا أَعْمَلُ لأَرِثَ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ؟». 26فَقَالَ لَهُ: «مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي النَّامُوسِ. كَيْفَ تَقْرَأُ؟» 27فَأَجَابَ: «تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَقَرِيبَكَ مِثْلَ نَفْسِكَ». 28فَقَالَ لَهُ: «بِالصَّوَابِ أَجَبْتَ. افْعَلْ هَذَا فَتَحْيَا». 29وَأَمَّا هُوَ فَإِذْ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّرَ نَفْسَهُ سَأَلَ يَسُوعَ: «وَمَنْ هُوَ قَرِيبِي؟». 30فَأَجَابَ يَسُوعُ: «إِنْسَانٌ كَانَ نَازِلاً مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى أَرِيحَا فَوَقَعَ بَيْنَ لُصُوصٍ فَعَرَّوْهُ وَجَرَّحُوهُ وَمَضَوْا وَتَرَكُوهُ بَيْنَ حَيٍّ وَمَيْتٍ. 31فَعَرَضَ أَنَّ كَاهِناً نَزَلَ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ فَرَآهُ وَجَازَ مُقَابِلَهُ. 32وَكَذَلِكَ لاَوِيٌّ أَيْضاً إِذْ صَارَ عِنْدَ الْمَكَانِ جَاءَ وَنَظَرَ وَجَازَ مُقَابِلَهُ. 33وَلكِنَّ سَامِرِيّاً مُسَافِراً جَاءَ إِلَيْهِ، وَلَمَّا رَآهُ تَحَنَّنَ، 34فَتَقَدَّمَ وَضَمَدَ جِرَاحَاتِهِ وَصَبَّ عَلَيْهَا زَيْتاً وَخَمْراً، وَأَرْكَبَهُ عَلَى دَابَّتِهِ وَأَتَى بِهِ إِلَى فُنْدُقٍ وَاعْتَنَى بِهِ. 35وَفِي الْغَدِ لَمَّا مَضَى أَخْرَجَ دِينَارَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا لِصَاحِبِ الْفُنْدُقِ وَقَالَ لَهُ: اعْتَنِ بِهِ، وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ أَكْثَرَ فَعِنْدَ رُجُوعِي أُوفِيكَ. 36فَأَيُّ هؤُلاَءِ الثَّلاَثَةِ تَرَى صَارَ قَرِيباً لِلَّذِي وَقَعَ بَيْنَ اللُّصُوصِ؟». 37فَقَالَ: «الَّذِي صَنَعَ مَعَهُ الرَّحْمَةَ». فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «اذْهَبْ أَنْتَ أَيْضاً وَاصْنَعْ هكَذَا» (لوقا 10: 25-37).

مناسبة رواية المثَل:

روى المسيح هذا المثَل عندما سأله أحد معلمي الناموس: «مَاذَا أَعْمَلُ لأَرِثَ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ؟». وقد جاوب المسيح عليه بالرغم من أن السؤال خاطئ موضوعاً، لأن الأجير لا يرث نتيجة عمله، بل لأنه ابن صاحب البيت، الذي وُلد في البيت.

ولم يكن من حق معلم الناموس أن يوجِّه هذا السؤال للمسيح، بل كان واجباً عليه أن يعرف إجابته من دراساته، فهو لم يكن "كاتباً" ينسخ الكتب المقدسة، بل كان «ناموسياً» حصل على درجة عالية من العلوم الدينية أهَّلته لأن يشرح الشريعة للناس.

ولم يكن معلِّم الناموس مخلصاً في سؤاله، فقد أظهر التواضع مع أن الكبرياء كانت دافعه. ولم يكن هدفه أن يعرف، بل أن يجرِّب المسيح كما جرَّبه إبليس في البرية (لوقا 4: 2). لذلك أجاب المسيح سؤاله بسؤال: «مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي النَّامُوسِ. كَيْفَ تَقْرَأُ؟». فأجاب أن المكتوب يوصي بمحبة الرب ومحبة القريب، وهي كتابة منسوجة على صُدرة ثوب كل معلم للناموس، ونصفها الأول مُقتَبس من التثنية 6: 5 «تُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ» ونصفها الثاني من لاويين 19: 18 «تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ». وواضحٌ أن محبة الإنسان لله تجعله يحب الناس الذين خلقهم الله على صورته.

كان الناموسي يعرف ولكنه لا يعمل بما يعرف، فأراد أن يبرِّر نفسه، وعاد يسأل: «وَمَنْ هُوَ قَرِيبِي؟». ولعله قصد بسؤاله هذا أن يوجِّه للمسيح امتحاناً آخر، لأن شريعة موسى نادت أن القريب هو اليهودي. ولكن المسيح كان يعلِّم أن القريب ليس فقط ابن شعبي، ولا قريبي قرابة الدم أو الدين، بل هو كل من يحتاج إلى المساعدة، مهما كانت عقيدته ولونه وخلفيته. ومع أن الناموسي طلب تعريفاً عقائدياً، إلا أن إجابة المسيح قدَّمت حالةً واقعيَّة، تحوِّل الناموسي من عالم النظريات والعقائد إلى عالم التطبيق والعمل، فروى المسيح

حادثة وقعت على الطريق العام، نسميها اليوم «مثَل السامري الصالح» تطالبنا بأن نمدَّ يد العون للمحتاج، وتعلِّمنا أن نساعد الجميع بمن فيهم المختلفين عنا في العقيدة والجنسية.

في مثَل «السامري الصالح» وضَّح لنا المسيح عمق واتساع محبته للإنسان، كل إنسان. واستخدم سؤال الناموسي الموجَّه بنيَّة ملتوية ليجعله بركة لكل من يتبع المسيح ويطيع تعليمه، فتتحقَّق السعادة للبشر الذين أحبهم. لقد تجسَّد هو وصُلب ومات وقام كي يعيش أتباعه لا لأنفسهم، بل له، ولكل من يحتاج إلى معونتهم، دون تمييز بين جنس أو عقيدة أو لون أو مال أو علم.

بدأ المسيح المثل بكلمة «إنسان» لأن قلبه دائماً مشغول بالإنسان. لقد جاء إلى العالم في صورة إنسان، ودعا نفسه «ابن الإنسان» ليفتدي بني الإنسان، وقال: «لأَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ أَيْضاً لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ، وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ» (مرقس 10: 45). ولم يحدد المسيح هوية هذا الإنسان ليوضِّح لنا من بداية المثَل أنه «لَيْسَ يَهُودِيٌّ وَلاَ يُونَانِيٌّ. لَيْسَ عَبْدٌ وَلاَ حُرٌّ. لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعاً وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ. فَإِنْ كُنْتُمْ لِلْمَسِيحِ فَأَنْتُمْ إِذاً نَسْلُ إِبْرَاهِيمَ، وَحَسَبَ الْمَوْعِدِ وَرَثَةٌ» (غلاطية 3: 28، 29).. الكل خليقة الله، وأبناء آدم، وأصحاب كرامة وسلطة على سائر المخلوقات. وبعد أن روى المسيح المثَل سأل الناموسي عمَّن يكون قريب ذلك الإنسان الجريح، فأجاب: «الَّذِي صَنَعَ مَعَهُ الرَّحْمَةَ» متفادياً ذكر أنه سامري «لأَنَّ الْيَهُودَ لا يُعَامِلُونَ السَّامِرِيِّينَ» (يوحنا 4: 9). وبهذه الإجابة الغامضة أكَّد الناموسي دون أن يدري أنه أيضاً إنسان جريح في معتقداته، ولكن المسيح الرحيم تحنن عليه وعلَّمه درساً عظيماً في الرحمة.

في هذا المثل نجد أربعة أنواع من الناس: الذين سلبهم الآخرون، والذين يسلبون الآخرين، والذين يحافظون على مالهم، والذين يساعدون غيرهم.

أولاً – الذين سلبهم الآخرون

روى المسيح عن الجريح الذي اعتدى اللصوص على ماله وثيابه عندما «عَرَّوْهُ» وهاجموا شخصه وصحته عندما «جَرَّحُوهُ» غير مكترثين بحياته ونفسه، «وَمَضَوْا وَتَرَكُوهُ بَيْنَ حَيٍّ وَمَيْتٍ» فأصبح عاجزاً عن مساعدة نفسه.

قد نلوم هذا الجريح لأنه سافر وحيداً في طريق خطرة ينتشر فيها قطاع الطريق، بينما كانت الحكمة تقتضي أن يسافر بصحبة آخرين حتى يكون بمأمن أفضل. فكان عدم حرصه سبباً في جلب الأذى والضرر على نفسه.

وفي عالمنا كثيرون يشبهون هذا الجريح. إنهم، بسبب خطئهم أو خطإ الغير، وقعوا ضحية ظروف أعجزتهم عن الوقوف على أقدامهم، فلم يعودوا يملكون إلا البكاء وطلب العون، منتظرين يداً رحيمة تمتد إليهم لتنتشلهم وتقيمهم وتسندهم. من هؤلاء نزلاء السجون الذين أعمى الشر عقولهم فاقترفوا الجرائم، وهم يحتاجون إلى من يحمل إليهم رسالة محبة المسيح وخلاصه ليبدأوا معه حياة جديدة. ومنهم من يقتلهم الشعور بالذنب بسبب خطاياهم، فلا يغفرون لأنفسهم ولا يطلبون الغفران الإلهي، وهم يحتاجون إلى من يفتش عليهم ويفتقدهم بمحبة وعطف ويقودهم إلى من هو الطريق والحق والحياة، الذي «يُرِيدُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُونَ وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يُقْبِلُونَ» (1تيموثاوس 2: 4).

وهناك كثيرون فقدوا أساسيات الحياة لأسباب خارجة عن إرادتهم، كاليتامى والمهجَّرين واللاجئين والمشردين وضحايا الحروب والكوارث الطبيعية، الذين ضاعت البسمة من على شفاههم، وقد حُرموا من دفء العائلة

وحنوها. وهناك كبار السن الذين يعانون من هجر أبنائهم وجحودهم بعد أن أفنوا العمر في تربيتهم، وهم يتلهفون لرنين الهاتف أو طرقات الباب، منتظرين المواساة والعون والدواء.

وهناك آلاف الفقراء الذين يموتون جوعاً في كثير من أرجاء العالم، بينما يعاني آخرون من التخمة وينفقون الأموال للتخلص من أوزانهم الزائدة!

إن البشر في حاجة لمن يعطف عليهم ويمد إليهم يد المحبة، ويحسن إلى المسيء ويشجع الضعيف، ويقيم المنحني، ويكون مستعداً بروح الخدمة أن يساعد الكسير ويجبره، ولا يحتقر ضعفات إخوته، وينظر إليهم كما فعل السامري الصالح، ويصلّون: «قَلْباً نَقِيّاً اخْلُقْ فِيَّ يَا اللهُ، وَرُوحاً مُسْتَقِيماً جَدِّدْ فِي دَاخِلِي.. فَأُعَلِّمَ الأَثَمَةَ طُرُقَكَ، وَالْخُطَاةُ إِلَيْكَ يَرْجِعُونَ» (مزمور 51: 10، 13).

ثانياً – الذين يسلبون الآخرين

ويقدم لنا مثل «السامري الصالح» اللصوص الذين عرّوا المسافر وجرحوه وتركوه بين حي وميت. وشعارهم: «سأسلب مالك بالعنف والقوة». وهم يكسرون الوصية الثامنة: «لا تَسْرِقْ» (خروج 20: 15).

وقد يسرق شخص لأنه محتاج، ولكن هناك لصوصاً يسرقون رغم عدم احتياجهم، فلم يكن الملك أخآب محتاجاً لبستان نابوت اليزرعيلي (1ملوك 21)، لكنه قتل نابوت وأخذ بستانه بدافع الاشتهاء والطمع، فكسر وصية: «لاَ تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لاَ تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ وَلاَ عَبْدَهُ وَلاَ أَمَتَهُ وَلاَ ثَوْرَهُ وَلاَ حِمَارَهُ وَلاَ شَيْئاً مِمَّا لِقَرِيبِكَ» (خروج 20: 17).

وقد يسلب شخص لأنه يحب المال الذي محبته أصل لكل الشرور، فإذا ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان، وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة (1تيموثاوس 6: 10).

وكثيراً ما تكون السرقة معنوية، كأن يسلب أحدهم سمعة غيره بالمذمّة، ويلطخها بافتراءات كاذبة وإشاعات مغرضة، فيهدم صورتهم النظيفة ليحصل على ما يتمتع به هؤلاء من مركز أو وظيفة أو قيادة أو محبة واحترام. وقد تكون السرقة أدبية، فيضع الإنسان اسمه على إنتاج قريحة غيره!

وما أكثر اللصوص الذين يأخذون الرشوة، ويظلمون الفقير، ولا يؤدون واجباتهم من نحو عائلاتهم أو جيرانهم!

وهناك مرض اسمه «مرض السرقة» ينشأ عن الحرمان أو الفقر أو القهر أو الغيرة، ويبدأ من الطفولة في مجتمع الأسرة الصغير، ثم يمتد إلى المجتمع الكبير. فليجتهد الآباء أن يكونوا لطفاء مع أولادهم، يعلمونهم بالقدوة والنصيحة مخافة الرب ووداعة الإيمان والشكر في كل حال، دون تفريق أو تمييز بينهم.

ثالثاً – الذين يحافظون على مالهم

«فَعَرَضَ أَنَّ كَاهِناً نَزَلَ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ فَرَآهُ وَجَازَ مُقَابِلَهُ. وَكَذَلِكَ لاَوِيٌّ أَيْضاً إِذْ صَارَ عِنْدَ الْمَكَانِ جَاءَ وَنَظَرَ وَجَازَ مُقَابِلَهُ» (لوقا 10: 31، 32). والكاهن هو رجل الدين المتخصص في تفسير الشريعة، وتقديم الذبائح طلباً للغفران لنفسه وللشعب، كما كانت مهمته العناية بأواني الهيكل وأثاثه. أما اللاوي فكانت مكانته الدينية أقل من الكاهن ولو أنه أعلى من الشعب، لأنه كان أقرب إلى تابوت العهد من سائر الشعب، ولكن ليس له الحق في تقديم الذبائح.

والكاهن واللاوي نموذجان لمن لا يساعدون إلا أنفسهم، وشعارهم «دعني أحافظ على مالي». لقد فات الكاهن واللاوي أن يطبّقا مبادئ الدين في الحياة اليومية، ولعلهما لم يدركا أن جسد الإنسان الجريح هيكلٌ للروح

القدس، ونسيا أن وصية المحبة هي تكميل الشريعة. على أن اللاوي اقترب من الجريح أكثر مما اقترب الكاهن، فقد جاء ونظر، ولكنه حذا حذو الكاهن، وجاز مقابل الجريح.

وربما تعلَّل رجلا الدين بأعذار لعدم مساعدة الجريح، وكأنهما يتساءلان: ماذا يحدث لي لو أني ساعدته؟ وأذكر ثلاثة أعذار:

1- قد يموت الجريح أثناء تقديم العون له:

فيفقد رجل الدين طهارته الطقسية، كما قالت شريعة موسى: «مَنْ مَسَّ مَيِّتاً مَيِّتَةَ إِنْسَانٍ مَا يَكُونُ نَجِساً سَبْعَةَ أَيَّامٍ.. كُلُّ مَنْ مَسَّ مَيِّتاً مَيِّتَةَ إِنْسَانٍ قَدْ مَاتَ وَلَمْ يَتَطَهَّرْ يُنَجِّسُ مَسْكَنَ الرَّبِّ، فَتُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ إِسْرَائِيلَ» (عدد 19: 11، 13).

2- قد يكون الجريح خدعة مدسوسة عليهما من اللصوص:

الذين كانوا يحتالون على المسافرين بأن يلعب أحدهم دور الجريح الذي يطلب المعونة، حتى إذا تطوع مسافر بمساعدته ينقضُّ هذا اللص عليه ويمسك به فيأتي باقي اللصوص ليسلبوا الضحية، وقد يقتلونه.

3 - ربما يحتاج إنقاذ الجريح إلى وقت طويل:

فيتعطَّل رجل الدين عن القيام بمسئولياته الطقسية في الهيكل، فيضيع عليه امتياز الخدمة الدينية، كما يلومه رؤساؤه.

لقد كان الواجب على الكاهن واللاوي أن يساعدا اليهودي الجريح، الذي يشترك معهما في العقيدة والجنس والوطن، والذي كان يعاني من الجراح الجسدية والنفسية. لكنهما تركاه معرضاً للموت متجاهلين أمر الشريعة القائل: «لا تَنْظُرْ حِمَارَ أَخِيكَ أَوْ ثَوْرَهُ وَاقِعاً فِي الطَّرِيقِ وَتَتَغَافَلُ عَنْهُ، بَل تُقِيمُهُ مَعَهُ لا مَحَالَةَ» (تثنية 22: 4)، فكم بالحري إن كان الأخ نفسه هو الذي وقع في الطريق! لقد قال الله: «أُرِيدُ رَحْمَةً لا ذَبِيحَةً» (هوشع 6: 6). فكم كان مهماً أن ينقذا أخاهما، ولكنهما فكرا في حماية نفسيهما فقط.

رابعاً - الذين يساعدون غيرهم

نري في مثل «السامري الصالح» نموذجاً رائعاً للذين يساعدون غيرهم، وشعارهم «سأشاركك في مالي» وهُم يقدِّمون غيرهم على أنفسهم. ولا بد أن السامري الصالح عندما رأى اليهودي الجريح تساءل في نفسه: ماذا يحدث له لو أني لم أساعده؟ ولا بد أنه تساءل أيضاً: ماذا يحدث لي لو أني ساعدته؟

كانت إجابة السؤال الأول سهلة: الجريح سيموت! أما إجابة السؤال الثاني فلها احتمالات كثيرة، منها: قد يرفض الجريح مساعدتي، لأن «الْيَهُودَ لا يُعَامِلُونَ السَّامِرِيِّينَ»، فالسامريون جنس نتج عن تزاوج الأشوريين الغزاة بفقراء اليهود الذين لم يُؤخذوا إلى السبي بعد سقوط المملكة الإسرائيلية. وعندما حاول السامريون مساعدة اليهود في بناء الهيكل الثاني على جبل صهيون، بعد الرجوع من السبي، رفض اليهود مساعدتهم، فحاربهم السامريون (عزرا 4: 2-5)، وأقاموا عبادتهم الخاصة على جبل جرزيم. ومع أنهم كانوا يحترمون موسى، ويقدسون شريعته، ويمارسون الختان، ويحفظون السبت، إلا أنهم لم يقبلوا من أسفار العهد القديم سوى أسفار موسى الخمسة. وقد دمر اليهود هيكل السامريين عام 128 ق م، وأخذوا يجبرونهم على أن يتهودوا. وفي سنة 6 ق م ألقى بعض السامريين عظاماً نجسة في هيكل أورشليم، فكره اليهودُ السامريين ولم يكونوا ينطقون كلمة «سامري» ويحسبون طعام السامري نجساً مثل لحم الخنزير!

ومع كل هذا كان السامري الصالح نموذجاً في المحبة العملية، لأنه حين رأى الجريح «تَحَنَّنَ» وعبَّر عن هذا بأن ضمد جراحه، وصبَّ عليها زيت الزيتون ليخفِّف آلامه، ثم صبَّ خمراً لأن الكحول فيها يطهر الجروح.

ولما كان الجريح عاجزاً عن السير أركبه السامري على دابته ومشى إلى جواره يسنده، وأتى به إلى فندق ليكون في مأمن، وبذل له كل عناية ممكنة، وقضى الليلة معه، فقدَّم راحة الجريح على نفسه. ولم يحسب أنه قام بكل شيء، فأدَّى واجب الرعاية حتى بعد سفره، إذ قدَّم لصاحب الفندق دينارين يقول المفسرون إنهما يكفيان لنفقات الإقامة مدة شهر في ذلك الزمان. ولم يكتفِ السامري بهذا، بل وعد أن يدفع أية نفقات تزيد عن الدينارين حتى يتعافى الجريح ويقدر أن يواصل رحلته، فكان إيمان السامري هو «الإِيمَانَ الْعَامِلَ بِالْمَحَبَّةِ» (غلاطية 5: 6) لأن الإيمان بدون أعمال ميت، ولأنه هبة مجانية من الله. وبقدر ما أن الإيمان امتياز فهو أيضاً مسؤولية، لأن من نال من الله كثيراً يطالبه الله بالكثير لخدمة الله ولخدمة أخيه الإنسان. لقد تمم السامري الصالح الوصف الرسولي: «إِنْ قَالَ أَحَدٌ: «إِنِّي أُحِبُّ اللهَ» وَأَبْغَضَ أَخَاهُ، فَهُوَ كَاذِبٌ. لأَنَّ مَنْ لاَ يُحِبُّ أَخَاهُ الَّذِي أَبْصَرَهُ، كَيْفَ يَقْدِرُ أَنْ يُحِبَّ اللهَ الَّذِي لَمْ يُبْصِرْهُ؟» (1يوحنا 4: 20).

ولنا على مساعدة السامري لليهودي أربع ملاحظات:

1 – لم تمنع الخلفية المؤلمة من كراهية اليهود للسامريين الرجل السامري من أن يساعد اليهودي الجريح:

كان السامري صاحب عين صالحة وقلب صالح، وكان يريد أن يفعل الخير للجميع. لقد تمَّم الوصية: «إِنْ جَاعَ عَدُوُّكَ فَأَطْعِمْهُ خُبْزاً، وَإِنْ عَطِشَ فَاسْقِهِ مَاءً، فَإِنَّكَ تَجْمَعُ جَمْراً عَلَى رَأْسِهِ، وَالرَّبُّ يُجَازِيكَ» (أمثال 25: 21، 22). وهي الوصية المقتبسَة في العهد الجديد: «فَإِنْ جَاعَ عَدُوُّكَ فَأَطْعِمْهُ، وَإِنْ عَطِشَ فَاسْقِهِ. لأَنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ هَذَا تَجْمَعْ جَمْرَ نَارٍ عَلَى رَأْسِهِ. لاَ يَغْلِبَنَّكَ الشَّرُّ، بَلِ اغْلِبِ الشَّرَّ بِالْخَيْرِ» (رومية 12: 20، 21).

2 – لم يقدم السامري العون لليهودي الجريح لغرض في نفسه، ولا لردِّ جميل سابق:

لم تكن للسامري معرفة سابقة بالجريح، ولم يقدم العون طلباً لمجد بشري، فلم يكن هناك من يراقب ما كان يفعله. لكنه فعل ما فعله لأنه كان يعلم أن «اَلرَّبُّ فِي هَيْكَلِ قُدْسِهِ. الرَّبُّ فِي السَّمَاءِ كُرْسِيُّهُ. عَيْنَاهُ تَنْظُرَانِ. أَجْفَانُهُ تَمْتَحِنُ بَنِي آدَمَ» (مزمور 11: 4).

ولم تكن في الجريح امتيازات تجتذب انتباه السامري، بل بالعكس فالموقف يغري بالابتعاد عنه. من هذا جنسية الجريح، وديانته، وحالته الصحية، وخطورة مساعدته من احتمال هجوم اللصوص على من يساعده، واحتمال اتهامه بأنه هو الذي اعتدى على الجريح! كما كان هناك احتمال أن يرفض الجريح مساعدته، لأنه يكره السامريين!

3 – قدَّم السامري خدمته للجريح دون تخطيط سابق:

كانت خدمة السامري تلقائية، كان سيقدمها لأي محتاج. لقد عمل بالوصية: «مَنْ كَانَ لَهُ مَعِيشَةُ الْعَالَمِ، وَنَظَرَ أَخَاهُ مُحْتَاجاً، وَأَغْلَقَ أَحْشَاءَهُ عَنْهُ، فَكَيْفَ تَثْبُتُ مَحَبَّةُ اللهِ فِيهِ؟» (1يوحنا 3: 17).

4 – خدم السامري بإصرار على الاستمرار حتى النهاية:

تابع السامري خدمته ليكملها، فتحقق فيه القول الرسولي: «وَاثِقاً بِهَذَا عَيْنِهِ أَنَّ الَّذِي ابْتَدَأَ فِيكُمْ عَمَلاً صَالِحاً يُكَمِّلُ إِلَى يَوْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ» (فيلبي 1: 3).

خامساً – دروس من المثل

1 – ينظر الله للبشر باعتبارهم إخوة:

يجب أن يتعاونوا مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعقائدهم فإنه «هَكَذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ!» (يوحنا 3: 16). «لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ» (متى 5: 45).

2 – يريد الله أن تظهر محبته للبشر التي أعلنها في تجسُّد المسيح بمحبتنا نحن لسائر البشر:

وسيكون البرهان قوياً إن كان من قلبٍ تدرَّب على حب الله، ومن أذنٍ تصغي لكلماته وتطيعها، ومن يدٍ تمتد لإخوة متألمين، فنسمعه يقول: «تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي، رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، لأَنِّي جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِي، عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي، كُنْتُ غَرِيباً فَآوَيْتُمُونِي» (متى 25: 34–40).

3 – لم يوجدنا الرب في العالم بمحض الصدفة بل باختيار سابق:

قال: «أَنْتُمْ مِلْحُ الأَرْضِ.. أَنْتُمْ نُورُ الْعَالَمِ. فَلْيُضِئْ نُورُكُمْ هَكَذَا قُدَّامَ النَّاسِ لِكَيْ يَرَوْا أَعْمَالَكُمُ الْحَسَنَةَ وَيُمَجِّدُوا أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ» (متى 5: 13، 16). «لأَنَّنَا نَحْنُ عَمَلُهُ، مَخْلُوقِينَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، قَدْ سَبَقَ اللهُ فَأَعَدَّهَا لِكَيْ نَسْلُكَ فِيهَا» (أفسس 2: 10). فلنتشبَّه بسيدنا الذي جال يصنع خيراً ويشفي جميع المتسلط عليهم إبليس (أعمال 10: 38).

سؤالان

1 – لماذا يكره اليهود السامريين؟

2 – بعد دراسة «مثل السامري الصالح» اشرح معنى قول الله «أريد رحمة لا ذبيحة».

1- ضرورة العمل

(جـــ) الأبناء يعملون

مثل الابنين

«مَاذَا تَظُنُّونَ؟ كَانَ لإِنْسَانٍ ابْنَانِ، فَجَاءَ إِلَى الأَوَّلِ وَقَالَ: يَا ابْنِي اذْهَبِ الْيَوْمَ اعْمَلْ فِي كَرْمِي. فَأَجَابَ: مَا أُرِيدُ. وَلَكِنَّهُ نَدِمَ أَخِيراً وَمَضَى. 30وَجَاءَ إِلَى الثَّانِي وَقَالَ كَذَلِكَ. فَأَجَابَ: هَا أَنَا يَا سَيِّدُ. وَلَمْ يَمْضِ. 31فَأَيُّ الاِثْنَيْنِ عَمِلَ إِرَادَةَ الأَبِ؟». قَالُوا لَهُ: «الأَوَّلُ». قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ الْعَشَّارِينَ وَالزَّوَانِيَ يَسْبِقُونَكُمْ إِلَى مَلَكُوتِ اللَّهِ، 32لأَنَّ يُوحَنَّا جَاءَكُمْ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ فَلَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ، وَأَمَّا الْعَشَّارُونَ وَالزَّوَانِي فَآمَنُوا بِهِ. وَأَنْتُمْ إِذْ رَأَيْتُمْ لَمْ تَنْدَمُوا أَخِيراً لِتُؤْمِنُوا بِهِ» (متى 21: 28-32).

في هذا المثَل نرى أباً يدعو ولديه للعمل في كرم العنب الخاص به. والأب هنا يرمز إلى الله، ويرمز الولدان الموجودان في البيت إلى أنواع البشر. إنهم جميعاً «عيال الله» لأنه خلقهم ويعولهم، ويكِلُ إليهم أعمالاً ينتظر أن يقوموا بها في ما يدعوه هنا «كَرْمَهُ». وتتَّضح بنوَّة البشر العامة لله من أن المسيح علَّمنا أن نبدأ الصلاة بأن ندعو «أَبَانَا» (متى 6: 9). فالله هو الأب المُهاب، المحب، المعتني، المعطي، المدبِّر. ويصوِّر الوحي اللهَ بأنه «الكرَّام» (يوحنا 15: 1) و«الراعي» (مزمور 23: 1) و«الآب» (يوحنا 1: 12). وهي صورٌ تدفع البشر على العمل في «كَرْمِ» أبيهم، وتخفِّف مصاعب تكليفاته لهم، وتُشعرهم بعظمة المسؤولية، وتملأ قلوبهم بالفرح عندما يرون «كرْمَه» يعلو ويثمر.

ويرينا المثل نوعين مختلفين من الناس، ولو أننا نرثي لأبيهما كليهما، فأولهما سيء القول ولو أنه ندم وأصلح سوء قوله بتغيير فكره، ثم بطاعته. أما الثاني فمعسول اللسان، مع أن عمله سيء. وكنا نود لو كان للأب ابنٌ يعد بلسانه ما ينفذه بعمله.. أو أن ولديه أحسنا القول والفعل!

يمثِّل الابن الأول الخطاة الذين يرفضون التكليف الإلهي، ولكن ضمائرهم تبكتهم فيستجيبون لتكليف أبيهم. إنهم الخطاة واللصوص والخونة والزواني وساقطو المجتمع الذين يجاوبون الله بقولهم: «مَا أُرِيدُ». ولكن عندما يحاصرهم الرب بمحبته فتعذِّبهم ضمائرهم يراجعون أنفسهم، ويستجيبون لندائه، قائلين: «تَكَلَّمْ يَا رَبُّ لأَنَّ عَبْدَكَ سَامِعٌ» (1صموئيل 3: 9).

ويمثِّل الابن الثاني المتظاهرين بالتديُّن الذين يقولون إنهم سيفعلون، ولكنهم لا يفعلون. وهم اليوم بعض المتعبِّدين الذين يبدون طيبين، ويجيبون الله بأدب قائلين: «هَا أَنَا يَا سَيِّدُ». إنهم لا ينسون يخاطبوه بالاحترام: «يَا سَيِّدُ» ولا يغفلون التعبير عن الطاعة بشفاههم، لكنهم يمضون إلى حال سبيلهم، دون أن يؤدوا ما وعدوا به. ولعل إجابتهم المؤدَّبة أرضت ضميرهم!

هذا المثل موجَّهٌ إلى البعيدين ليراجعوا أنفسهم ويتوبوا، كما أنه موجَّهٌ للمتديِّنين الذين يعلنون قبولهم لتكليف الله لهم ولكنهم لا ينفِّذون! والمثَل يدعوهم ليستيقظوا من اعتمادهم على طقوس العبادة دون روحها، وليتذكروا أن هناك خطاة وضالين كثيرين قد قبلوا رسالة الحق، سيسبقونهم إلى ملكوت الله (متى 21: 31)!

والسؤال الذي يثيره المسيح، ليس «فأي الابنين قال؟» بل: «فَأَيُّ الاِثْنَيْنِ عَمِلَ إِرَادَةَ الأَبِ؟». فلنفحص أفعالنا.

أولاً - التكليف الإلهي

1 - الكَرْم:

يدعو الله كل إنسان ليؤدي خدمة معينة، يشبِّهها بالعمل في كرم العنب، فالرب هو «الكرّام» والمؤمنون هم «العاملون في الكرم». وكرم الرب قد يكون قلوبنا، ويقول الرب: «يَا ابْنِي أَعْطِنِي قَلْبَكَ وَلْتُلاَحِظْ عَيْنَاكَ طُرُقِي» (أمثال 23: 26). وقد يكون كرمه عائلاتنا و«طُوبَى لِكُلِّ مَنْ يَتَّقِي الرَّبَّ وَيَسْلُكُ فِي طُرُقِهِ.. امْرَأَتُكَ مِثْلُ كَرْمَةٍ مُثْمِرَةٍ فِي جَوَانِبِ بَيْتِكَ. بَنُوكَ مِثْلُ غُرُوسِ الزَّيْتُونِ حَوْلَ مَائِدَتِكَ» (مزمور 128: 1-3). وقد يكون كرم الرب مكان عملنا، حيث يجب أن يرى الناس أعمالنا الحسنة فيمجدون أبانا الذي في السماوات (متى 5: 16). كما أن كرمه عالمنا الذي يجب أن نحيا فيه بلا عيب، وسط جيل معوج وملتوٍ نضيء بينهم كأنوار (فيلبي 2: 15)، طاعةً للأمر الرسولي: «اكْرِزْ بِالْكَلِمَةِ. اعْكُفْ عَلَى ذَلِكَ فِي وَقْتٍ مُنَاسِبٍ وَغَيْرِ مُنَاسِبٍ. وَبِّخِ، انْتَهِرْ، عِظْ بِكُلِّ أَنَاةٍ وَتَعْلِيمٍ.. احْتَمِلِ الْمَشَقَّاتِ.. تَمِّمْ خِدْمَتَكَ» (2تيموثاوس 4: 2، 5).

طلب شاب من راعي كنيسة أن يقبل انضمامه إلى العُضوية، فسأله الراعي عن الخدمة التي يحب أن يقدمها للكنيسة بعد انضمامه، فسأل: «وماذا سأعمل في الكنيسة؟» فاقترح عليه الراعي التدريس في مدرسة الأحد، فاعتذر لأنه لا يحتمل شقاوة الأطفال. واقترح عليه زيارة المرضى، فاعتذر بأنه خجول ولا يحب التعامل مع الغرباء. واقترح عليه الانضمام لفريق الترنيم، فاعتذر لأن أذنه غير موسيقية. فقال له الراعي: «إذاً قد أخطأت اختيار الكنيسة التي يجب أن تنضم إليها». ثم أشار له إلى المقابر الموجودة خلف الكنيسة وقال له: «هذه كنيسة راحة القديسين التي كان يجب أن تطلب الانضمام إليها، فإن العضو الحي لا يمكن إلا أن يكون عاملاً!». وكل مؤمن مكلَّفٌ أن يخدم الله بالعمل في كرمه.

2 – فوائد الكرم:

عندما نعمل في هذا الكرم، داخل نفوسنا وخارجها سنكتشف أن للكرم ثلاث فوائد:

(أ) إنه يظلل الناس من حرارة الشمس: والبشر يتظللون تحت ظل كرم الرب، وفي رعاية المؤمنين الحقيقيين. وعندما تتظلل وتحتمي تحت جناحي الرب، كما تكون مظلة للمتعَبين من البشر حولك، يصير عالمنا أفضل. «الرَّبُّ حَافِظُكَ. الرَّبُّ ظِلٌّ لَكَ عَنْ يَدِكَ الْيُمْنَى. لاَ تَضْرِبُكَ الشَّمْسُ فِي النَّهَارِ، وَلاَ الْقَمَرُ فِي اللَّيْلِ» (مزمور 121: 5، 6).

(ب) يمنح الكرم الطبيعة جمالاً بأوراقه الخضراء التي تسرُّ الناظرين: والمؤمنون «مَغْرُوسِينَ فِي بَيْتِ الرَّبِّ، فِي دِيَارِ إِلَهِنَا يُزْهِرُونَ. أَيْضاً يُثْمِرُونَ فِي الشَّيْبَةِ. يَكُونُونَ دِسَاماً وَخُضْراً، لِيُخْبِرُوا بِأَنَّ الرَّبَّ مُسْتَقِيمٌ» (مزمور 92: 13-15). ولا غرابة فإن الله يجمِّل الودعاء بالخلاص (مزمور 149: 4)، فيكتسبون جمالاً من نعمة الله، ويجمِّلون المكان الذي يوجدون فيه، كما هو مكتوب: «هُوَذَا مَا أَحْسَنَ وَمَا أَجْمَلَ أَنْ يَسْكُنَ الإِخْوَةُ مَعاً!.. لأَنَّهُ هُنَاكَ أَمَرَ الرَّبُّ بِالْبَرَكَةِ، حَيَاةٍ إِلَى الأَبَدِ» (مزمور 133).

(ج) يعطي الكرم ثمراً لذيذاً يُشبع الجائع ويغيث المعيي: وثمر الكرم هو العنب ذو الطعم اللذيذ في كل حالاته: طازجاً ومجففاً ومعصوراً. والمؤمن جميل المعشر في كل مراحل حياته الإيمانية، وفي مختلف حالاته، حتى لو كانت الآلام تعصره!

3 – تشريف العمل في الكرم:

(أ) العمل في الكرم شرفٌ لأن الرب يدعو العامل فيه «يا ابني»: فانظروا وتأملوا أية محبة أعطانا الآب حتى نُدعى أولاد الله! (1يوحنا 3: 1). هذا التكليف هو دالة الأب على أولاده، فالمؤمنون لا يخدمون خدمة العبيد بل خدمة الورثة، فقد قال المسيح: «أَنْتُمْ أَحِبَّائِي إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أُوصِيكُمْ بِهِ. لاَ أَعُودُ أُسَمِّيكُمْ عَبِيداً، لأَنَّ الْعَبْدَ لاَ يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ سَيِّدُهُ. لَكِنِّي قَدْ سَمَّيْتُكُمْ أَحِبَّاءَ لأَنِّي أَعْلَمْتُكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي» (يوحنا 15: 14، 15).. فأية نعمة وأية تكريم أعظم من هذه!

هناك دعوة شخصية موجَّهة إليك تكلفك بالعمل، لأنك موضع تقدير وثقة أبيك السماوي، فلا تقلل من شأن نفسك ولا تستهن بدعوته، وابدأ بتقديم خدمة عملية لله في يومك هذا. اطلب منه أن يساعدك لتخدم الجميع «وَكُلُّ مَا فَعَلْتُمْ فَاعْمَلُوا مِنَ الْقَلْبِ، كَمَا لِلرَّبِّ، لَيْسَ لِلنَّاسِ» (كولوسي 3: 23).

(ب) والعمل في الكرم شرف لأنه عاجل: فموعد العمل هو «اليوم». إنه إلحاح المسؤولية، الذي قدَّم المسيح لنا فيه نفسه قدوة، فقال: «يَنْبَغِي أَنْ أَعْمَلَ أَعْمَالَ الَّذِي أَرْسَلَنِي مَا دَامَ نَهَارٌ. يَأْتِي لَيْلٌ حِينَ لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ» (يوحنا 9: 4). «الْيَوْمَ إِنْ سَمِعْتُمْ صَوْتَهُ فَلاَ تُقَسُّوا قُلُوبَكُمْ» (عبرانيين 4: 7).

(ج) والعمل في الكرم شرف لأنه بالفعل لا بالقول: إنه عمل يراه الجميع، فالرب يقول: «اعمل» لأن الأعمال تعبِّر عن الحب لله. صحيحٌ أن للكلمات أهميتها، ولكنها لا تُحترَم إن لم تصاحبها الأفعال التي تؤيدها، فصوت الفعل أعلى من صوت الكلام! «هَكَذَا الإِيمَانُ أَيْضاً، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَعْمَالٌ، مَيِّتٌ فِي ذَاتِهِ.. لَكِنْ يَقُولُ قَائِلٌ: «أَنْتَ لَكَ إِيمَانٌ، وَأَنَا لِي أَعْمَالٌ!». أَرِنِي إِيمَانَكَ بِدُونِ أَعْمَالِكَ، وَأَنَا أُرِيكَ بِأَعْمَالِي إِيمَانِي» (يعقوب 2: 17، 18).

(د) والعمل في الكرم شرف بسبب الثمر العظيم الذي نجنيه: فبالرغم من أنه يشغل كل الوقت ويستغرق كل الجهد ويتطلب كل التفكير، إلا أن ثمره مفرحٌ جداً للزارع والحاصد معاً. ويقول الله: «لأَنَّهُ كَمَا يَنْزِلُ الْمَطَرُ وَالثَّلْجُ مِنَ السَّمَاءِ وَلاَ يَرْجِعَانِ إِلَى هُنَاكَ، بَلْ يُرْوِيَانِ الأَرْضَ، وَيَجْعَلاَنِهَا تَلِدُ وَتُنْبِتُ وَتُعْطِي زَرْعاً لِلزَّارِعِ وَخُبْزاً لِلآكِلِ، هَكَذَا تَكُونُ كَلِمَتِي الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ فَمِي. لاَ تَرْجِعُ إِلَيَّ فَارِغَةً، بَلْ تَعْمَلُ مَا سُرِرْتُ بِهِ، وَتَنْجَحُ فِي مَا أَرْسَلْتُهَا لَهُ» (إشعياء 55: 10، 11). «لأَنَّ كَلِمَةَ اللهِ حَيَّةٌ وَفَعَّالَةٌ، وَأَمْضَى مِنْ كُلِّ سَيْفٍ ذِي حَدَّيْنِ، وَخَارِقَةٌ إِلَى مَفْرَقِ النَّفْسِ وَالرُّوحِ وَالْمَفَاصِلِ وَالْمِخَاخِ، وَمُمَيِّزَةٌ أَفْكَارَ الْقَلْبِ وَنِيَّاتِهِ» (عبرانيين 4: 12).

وكل مؤمن يبذر بذار الكلمة يكون قد شبع بها، واكتشف تأثيرها المدهش على حياته، فيقول: «وُجِدَ كَلاَمُكَ فَأَكَلْتُهُ فَكَانَ كَلاَمُكَ لِي لِلْفَرَحِ وَلِبَهْجَةِ قَلْبِي» (إرميا 15: 16)، «وَصِيَّتُكَ جَعَلَتْنِي أَحْكَمَ مِنْ أَعْدَائِي.. أَكْثَرَ مِنَ الشُّيُوخِ فَطِنْتُ، لأَنِّي حَفِظْتُ وَصَايَاكَ» (مزمور 119: 98، 100). وعندما يبذرها يجدها تقرِّب البعيد وتحوِّل الخصام إلى مصالحة وسلام، فيقول: «إِذاً نَسْعَى كَسُفَرَاءَ عَنِ الْمَسِيحِ، كَأَنَّ اللهَ يَعِظُ بِنَا. نَطْلُبُ عَنِ الْمَسِيحِ: تَصَالَحُوا مَعَ اللهِ» (2كورنثوس 5: 20).

ثانياً – عصيان بالقول لا بالعمل

كانت إجابة الابن الأول: «مَا أُرِيدُ». وهذه إجابة القلب الطبيعي الذي لم تلمسه نعمة التغيير والتجديد. إنه يرغب في الراحة، وينشغل بمسراته الشخصية، ولا يريد أن يؤدي عمل الرب، لأن قبول الدعوة يعني احتمال المصاعب في سبيل أداء الخدمة المطلوبة. لكنه «نَدِمَ أَخِيراً» وذهب لينفِّذ أمر أبيه.

تُرى ما الذي جعل هذا الابن يتغيَّر فيطيع بعمله، بعد أن أعلن العصيان بشفتيه؟

لا بد أنه فكَّر في لطف أبيه، وفي مسؤولياته من نحو هذا الآب! لقد طلب منه ولم يُجبره على الطاعة. كم هو محب، وكم هو طويل أناة. لا شك أنه افتكر تعاملات أبيه الماضية معه، فطالما اختبر غفرانه الكثير على سيئاته الكثيرة، وكان يعرف أن أباه لا بد سيقبل توبته واعتذاره، فبدأت استجابته لنداء أبيه في قلبه.

وتحوَّلت تلك المشاعر الداخلية إلى عمل، لأنه «نَدِمَ أَخِيراً وَمَضَى» لينفذ طلب أبيه. لم يرغب في أن يكون اعتذاره لأبيه بلسانه، بل عبر عن أسفه بعمله.

وكم من شخصٍ يدرك اليوم محاولات الرب الكثيرة لردِّه إلى طريق الإيمان، فينهض راجعاً تائباً! وكم من مؤمن يدرك أن الله يكلفه ولكنه تهرَّب من التكليف. وفجأة تشرق محبة الله على قلبه، فيلتهب داخله أسفاً وحباً، يتحوّل إلى طاعةٍ وخدمة!

إن كنتَ في مثل حالة هذا الابن، فطوبى لك إن قمت الآن لتنفذ ما كلفك الله به. وإن كنت تتعامل مع شخص في حالة تشبه حالة هذا الابن، فكن شفوقاً به، لأن إبليس «أَعْمَى أَذْهَانَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، لِئَلاَّ تُضِيءَ لَهُمْ إِنَارَةُ إِنْجِيلِ مَجْدِ الْمَسِيحِ، الَّذِي هُوَ صُورَةُ اللهِ.. لأَنَّ اللهَ الَّذِي قَالَ أَنْ يُشْرِقَ نُورٌ مِنْ ظُلْمَةٍ، هُوَ الَّذِي أَشْرَقَ فِي قُلُوبِنَا، لإِنَارَةِ مَعْرِفَةِ مَجْدِ اللهِ فِي وَجْهِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ» (2كورنثوس 4: 4، 6). فلنعلم أن «مَنْ رَدَّ خَاطِئاً عَنْ ضَلاَلِ طَرِيقِهِ يُخَلِّصُ نَفْساً مِنَ الْمَوْتِ، وَيَسْتُرُ كَثْرَةً مِنَ الْخَطَايَا» (يعقوب 5: 20).

وكل من يعلم أن هناك فرصةً لمراجعة النفس، يعطي غيره فرصة ليراجع نفسه. فإذا أخطأ ابنك أو ابنتك، أو أخوك أو قريبك، فاعطه فرصة ثانية ليراجع نفسه، واقبل اعتذاره.. وإن كان الرب قد أعطاك فرصة توصيل الرسالة لشخصٍ يرفض دعوة الله، وترددتَ في اغتنامها، فهو الآن يُعيد تكليفك، لأنه يعلم أنك تحبه وستطيعه، فهو إله الفرصة الثانية.

ثالثاً – طاعة بالقول لا بالعمل

كان الابن الثاني سريعاً في التعبير عن الطاعة بلسانه، متقاعساً في التنفيذ بجسده! فهو يقول «نعم» لكنه لا يفعل. لقد أعلن الطاعة بشفتيه، أما قلبه فكان بعيداً عن مستوى قوله. إنه مثل شجرة تين ذات ورق، ولكنها بدون ثمر (مرقس 11: 13، 14). هذا الابن أشرُّ من أخيه، لأنه أعطى أباه الانطباع الكاذب أنه سيقوم بالعمل المطلوب، فانصرف أبوه مطمئناً، ولكنه كان ينوي عدم الطاعة، فغشَّ أباه وكذب عليه. والكذب «مِنْ أَبٍ هُوَ إِبْلِيسُ.. ذَاكَ كَانَ قَتَّالاً لِلنَّاسِ مِنَ الْبَدْءِ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْحَقِّ لأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَقٌّ. مَتَى تَكَلَّمَ بِالْكَذِبِ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ مِمَّا لَهُ لأَنَّهُ كَذَّابٌ وَأَبُو الْكَذَّابِ» (يوحنا 8: 44).

فإن كان الله قد منحنا امتياز أن ندعوه: «أَبَانَا» فليكن فينا الصدق في القول والفعل، ولا نكن كالمرائين المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون، ولا «نَعْرُجُ بَيْنَ الْفِرْقَتَيْنِ» فنعطي من طرف اللسان حلاوةً، ونروغ كما يروغ الثعلب! بل لنفرح بعمل مشيئة الله الصالحة ونقول له: «هَئَنَذَا، أَرْسِلْنِي».

ما أكثر الذين تتوقف علاقتهم بالرب على حضور العبادة يوم الأحد، فيذهبون للكنائس وكأنهم ذاهبون في نزهة أو رحلة، يلقون تذكرة السفر في نهايتها، وينفضون أيديهم منها. لهؤلاء يقول الوحي: «إِنَّكُمْ عَارِفُونَ الْوَقْتَ أَنَّهَا الآنَ سَاعَةٌ لِنَسْتَيْقِظَ مِنَ النَّوْمِ.. قَدْ تَنَاهَى اللَّيْلُ وَتَقَارَبَ النَّهَارُ، فَلْنَخْلَعْ أَعْمَالَ الظُّلْمَةِ وَنَلْبَسْ أَسْلِحَةَ النُّورِ» (رومية 13: 11، 12).. «كُونُوا عَامِلِينَ بِالْكَلِمَةِ، لاَ سَامِعِينَ فَقَطْ خَادِعِينَ نُفُوسَكُمْ» (يعقوب 1: 22)، ولنعلن طاعتنا لدعوة الرب بالفكر واللسان والسلوك.

أيها القارئ الكريم،

لا تنتظر حتى يكلفك الله بخدمة عظيمة، فإن العمل في كرم الرب رائع في أي موقع وفي كل حالة. كُن مكتفياً بأن تقوم بأبسط الأمور، وقُم بها بأفضل قدراتك. افتح عينيك على فُرص خدمة الآخرين، وتقديم الرسالة المفرحة لتملأ نفوسهم بالأمل.

اذهب إلى العمل ولا تنتظر حتى يجيء العمل إليك.

سؤالان

1 – اذكر ثلاث فوائد للكرم، وما يعنيه هذا لك اليوم.

2 – لماذا كنا نودُّ أن يكون لهذا الأب ابن ثالث؟ أو ما هو التغيير المطلوب في الابنين الأول والثاني؟

1- ضرورة العمل

(د) العاملون يعملون

مثل الكرامين الأردياء

33«اسْمَعُوا مَثَلاً آخَرَ: كَانَ إِنْسَانٌ رَبُّ بَيْتٍ غَرَسَ كَرْماً وَأَحَاطَهُ بِسِيَاجٍ وَحَفَرَ فِيهِ مَعْصَرَةً وَبَنَى بُرْجاً وَسَلَّمَهُ إِلَى كَرَّامِينَ وَسَافَرَ. 34وَلَمَّا قَرُبَ وَقْتُ الأَثْمَارِ أَرْسَلَ عَبِيدَهُ إِلَى الْكَرَّامِينَ لِيَأْخُذَ أَثْمَارَهُ. 35فَأَخَذَ الْكَرَّامُونَ عَبِيدَهُ وَجَلَدُوا بَعْضاً وَقَتَلُوا بَعْضاً وَرَجَمُوا بَعْضاً. 36ثُمَّ أَرْسَلَ أَيْضاً عَبِيداً آخَرِينَ أَكْثَرَ مِنَ الأَوَّلِينَ فَفَعَلُوا بِهِمْ كَذَلِكَ. 37فَأَخِيراً أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ ابْنَهُ قَائِلاً: يَهَابُونَ ابْنِي! 38وَأَمَّا الْكَرَّامُونَ فَلَمَّا رَأَوُا الابْنَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: هَذَا هُوَ الْوَارِثُ. هَلُمُّوا نَقْتُلْهُ وَنَأْخُذْ مِيرَاثَهُ! 39فَأَخَذُوهُ وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ الْكَرْمِ وَقَتَلُوهُ. 40فَمَتَى جَاءَ صَاحِبُ الْكَرْمِ، مَاذَا يَفْعَلُ بِأُولَئِكَ الْكَرَّامِينَ؟».

41قَالُوا لَهُ: «أُولَئِكَ الأَرْدِيَاءُ يُهْلِكُهُمْ هَلاَكاً رَدِيّاً، وَيُسَلِّمُ الْكَرْمَ إِلَى كَرَّامِينَ آخَرِينَ يُعْطُونَهُ الأَثْمَارَ فِي أَوْقَاتِهَا».

42قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ فِي الْكُتُبِ: الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ. مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هَذَا، وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا؟ 43لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَلَكُوتَ اللَّهِ يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ. 44وَمَنْ سَقَطَ عَلَى هَذَا الْحَجَرِ يَتَرَضَّضُ، وَمَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ يَسْحَقُهُ».

45وَلَمَّا سَمِعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ أَمْثَالَهُ عَرَفُوا أَنَّهُ تَكَلَّمَ عَلَيْهِمْ. 46وَإِذْ كَانُوا يَطْلُبُونَ أَنْ يُمْسِكُوهُ خَافُوا مِنَ الْجُمُوعِ، لأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ مِثْلَ نَبِيٍّ» (متى 21: 33-46).

(ورد هذا المثل أيضاً في مرقس 12: 1-9 ولوقا 20: 9-16)

روى المسيح هذا المثل ليؤكد حقيقة أن الآب يعمل وأنه هو أيضاً يعمل (يوحنا 5: 17)، وأن الآب لا يزال يعمل حتى بعد أن رفض اليهودُ الأنبياءَ الذين أرسلهم إليهم لتوصيل رسالته الإلهية، وقتلوهم. ثم أرسل ابنه الوحيد الحبيب فقتلوه أيضاً، فأقامه قيامة مجيدة، وأعطى الملكوت لأمَّة تعمل أثماره.

وبعد رواية المثَل اقتبس المسيح إحدى النبوَّات التي وردت عنه في مزمور 118: 22، 23 والتي تقول: «الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ. مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هَذَا، وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا». وهو الحجر الذي قال الله عنه بفم إشعياء النبي: «هَكَذَا يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَئَنَذَا أُؤَسِّسُ فِي صِهْيَوْنَ حَجَرَ امْتِحَانٍ، حَجَرَ زَاوِيَةٍ كَرِيماً، أَسَاساً مُؤَسَّساً» (إشعياء 28: 16). وتحقَّق رفض «رأس الزاوية» إذ قال اليهود المتشككون عنه: «أَمِنَ النَّاصِرَةِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ صَالِحٌ؟» (يوحنا 1: 46) وتساءلوا: «أَلَيْسَ هَذَا ابْنَ النَّجَّارِ؟ أَلَيْسَتْ أُمُّهُ تُدْعَى مَرْيَمَ، وَإِخْوَتُهُ يَعْقُوبَ وَيُوسِي وَسِمْعَانَ وَيَهُوذَا؟.. فَكَانُوا يَعْثُرُونَ بِهِ» (متى 13: 55، 57).

أما المؤمنون فيرون المسيح «رأس زاوية» إيمانهم، الذي عيَّنه الله منذ الأزل ليكون أساساً للكنيسة، لا يمكن أن يقوم البناء ويتماسك إلا به، فهو يربط ويوحِّد المؤمنين الذين جاءوا من خلفية يهودية ومن خلفية وثنية، ويجعل الاثنين واحداً، وينقض حائط السياج المتوسط أي العداوة، ويصالح الاثنين في جسد واحد مع الله بالصليب، قاتلاً العداوة به (أفسس 2: 13-16) فيكونون «مَبْنِيِّينَ عَلَى أَسَاسِ الرُّسُلِ وَالأَنْبِيَاءِ، وَيَسُوعُ الْمَسِيحُ

نَفْسُهُ حَجَرُ الزَّاوِيَةِ» (أفسس 2: 20). وكل من يقبله يخلُص، وكل من يرفضه يهلك. الذي يؤمن به لا يُدان، والذي لا يؤمن قد دين، لأنه لم يؤمن بابن الله الوحيد (يوحنا 3: 18).

ولم يفهم اليهود في البداية أن المسيح قصدهم بهذا المثل، فعندما سألهم: «فَمَتَى جَاءَ صَاحِبُ الْكَرْمِ، مَاذَا يَفْعَلُ بِأُولَئِكَ الْكَرَّامِينَ؟». فأجابوه: «أُولَئِكَ الأَرْدِيَاءُ يُهْلِكُهُمْ هَلاَكاً رَدِيّاً، وَيُسَلِّمُ الْكَرْمَ إِلَى كَرَّامِينَ آخَرِينَ يُعْطُونَهُ الأَثْمَارَ فِي أَوْقَاتِهَا» (آية 41). ولكنهم سرعان ما أدركوا أنه يقصدهم، وأنهم وصفوا أنفسهم بالكرامين الأردياء، فأرادوا أن يقبضوا عليه، لأنه قال إنهم قتَلة الأنبياء، وإنه ابن الله، وإنهم سيقتلونه! لقد كانوا يعرفون من إشعياء 5: 1–7 أنهم كرم الرب، وكانوا ينقشون عنقود العنب على عملاتهم النقدية رمزاً لاقتصادهم الذي منحه الله لهم.. أما صاحب الكرم فهو الله الذي اختارهم ليعملوا في كرمه.. أما عبيد صاحب الكرم فهم أنبياؤه الذين قال عنهم: «فَمِنَ الْيَوْمِ الَّذِي خَرَجَ فِيهِ آبَاؤُكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ أَرْسَلْتُ إِلَيْكُمْ كُلَّ عَبِيدِي الأَنْبِيَاءِ مُبَكِّراً كُلَّ يَوْمٍ وَمُرْسِلاً، فَلَمْ يَسْمَعُوا لِي وَلَمْ يَمِيلُوا أُذُنَهُمْ، بَلْ صَلَّبُوا رِقَابَهُمْ. أَسَاءُوا أَكْثَرَ مِنْ آبَائِهِمْ» (إرميا 7: 25، 26).. و«الابن» في المثَل ليس مجرَّد ابن، بل هو «الابْنُ الْوَحِيدُ الَّذِي هُوَ فِي حِضْنِ الآبِ» (يوحنا 1: 18).. أما المستأجرون الجدد فهم المؤمنون بالمسيح من كل أمة وشعب، الذين قيل عنهم: «وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَاناً أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللَّهِ، أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ» (يوحنا 1: 12).

هذا المثل نبوَّة واضحة عن عمل الله في الصليب، ليفتح باب الخلاص للأمم من كل قبيلة وشعب ولسان، فهو «الَّذِي يُرِيدُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُونَ، وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يُقْبِلُونَ» (1تيموثاوس 2: 4). وهو مثَلٌ يصف حالة قومٍ يترددون على الكنائس ولكنهم لم يقبلوا المسيح مخلِّصاً، فهُم يؤدون عبادةً مظهرية خالية من العلاقة الشخصية بالرب. إنهم كالفريسيين الذين نادوا بمبادئ سليمة لم يمارسوها، وقدموا عبادة الشفتين لا القلب والسلوك.. فلنطلب من الرب أن يعطينا نعمةً لنكون سامعين عاملين بالكلمة، لا خادعين نفوسنا، فتكون عبادتنا نابعةً من أعماق قلوبنا «لأَنَّ الآبَ طَالِبٌ مِثْلَ هؤُلاَءِ السَّاجِدِينَ لَهُ. اَللَّهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا» (يوحنا 4: 23، 24).

أولاً – صاحب الكرم

1 – زَرَعَ الكرم:

«إِنْسَانٌ رَبُّ بَيْتٍ غَرَسَ كَرْماً وَأَحَاطَهُ بِسِيَاجٍ وَحَفَرَ فِيهِ مَعْصَرَةً وَبَنَى بُرْجاً وَسَلَّمَهُ إِلَى كَرَّامِينَ وَسَافَرَ» (آية 33). يصوِّر هذا المثَل لنا الله «ربَّ بيت» هو السيد المطاع فيه، وهو الذي يدبر أموره، ويضع له القوانين، ويحمي أهله من كل شر، وهو القدوة له.. وقد غرس رب البيت كرماً لنفسه لا بد أنه من أجود الأنواع، وأحاطه بسور، وبنى فيه برج مراقبة يقدر الحراس منه أن يروا كل الجوانب فيكونون مستعدين للدفاع عنه، وليجدوا مكاناً يستريحون فيه أثناء التناوب على الحراسة. وبالسياج والبرج عمل على المحافظة على كرمه من هجوم اللصوص السارقين، ومن الثعالب المفسدين، وجعل له حدوداً تميِّزه عما يحيط به من خارجه، ومنع أي عدو من أن يأتي ليزرع في وسطه عنباً رديئاً (متى 13: 25).. وحفر فيه معصرة لأنه كان ينتظر منه ثمراً صالحاً وفيراً.

وما أجمل أن نفكر في الله باعتباره «رب بيت» فهو الخالق، رب كل شيء، المالك والمعطي. قبل أن يخلق أبوينا الأوَّلين خلق لهما جنةً فيها كل ما يحتاجه الإنسان. ونحن، من قبل أن نولد هيأ لنا كل شيء صالح «يَدَاكَ صَنَعَتَانِي وَأَنْشَأَتَانِي» (مزمور 119: 73) وهو يقول عنا: «الْمُحَمَّلِينَ عَلَيَّ مِنَ الْبَطْنِ، الْمَحْمُولِينَ مِنَ الرَّحِمِ. وَإِلَى الشَّيْخُوخَةِ أَنَا هُوَ، وَإِلَى الشَّيْبَةِ أَنَا أَحْمِلُ. قَدْ فَعَلْتُ، وَأَنَا أَرْفَعُ وَأَنَا أَحْمِلُ وَأُنَجِّي» (إشعياء 46:

3، 4). لقد هيَّأ لنا عائلة أحبتنا واعتنت بنا ورعتنا، فيُقال لنا: «أَيُّ شَيْءٍ لَكَ لَمْ تَأْخُذْهُ؟ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَخَذْتَ، فَلِمَاذَا تَفْتَخِرُ كَأَنَّكَ لَمْ تَأْخُذْ؟» (1كورنثوس 4: 7). وقد وهبنا كنز كلمته الحية المدوَّنة في الكتاب المقدس لنقول: «عَرَّفْتَنِي سُبُلَ الْحَيَاةِ، وَسَتَمْلأُنِي سُرُوراً مَعَ وَجْهِكَ» (أعمال 2: 28)، وبهذا أعدَّ كل ما نحتاجه لنأتي بثمر ويدوم ثمرنا، ثم سلَّمنا هذا كلَّه وأعطانا حرية استخدامه «وسافر». والحقيقة هي «كأنه مسافر» فهو قريب منا، يتابعنا ويعتني بنا ويراقبنا ويقول لكل واحد منا: «لا أُهْمِلُكَ وَلا أَتْرُكُكَ» (عبرانيين 13: 5). لقد أعطانا الحياة والعطايا وسلَّمها لنا أمانة لفترة قد تطول أو تقصر، ولكنه لا بد يعود ليجمع الثمر الذي ينتظره منا، والذي يجب أن يكون ثمراً جيداً، ويقول لنا: «لَيْسَ أَنْتُمُ اخْتَرْتُمُونِي بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ وَأَقَمْتُكُمْ لِتَذْهَبُوا وَتَأْتُوا بِثَمَرٍ وَيَدُومَ ثَمَرُكُمْ» (يوحنا 15: 16).

2 – أرسل العبيد:

أرسل الله عبيده الأنبياء إلى بني إسرائيل فقابلوهم بالرفض، فأطال أناته وأرسل عبيداً آخرين، ولكن اليهود ضربوهم وجلدوهم ورجموهم وقتلوا بعضهم. وقد وصف كاتب رسالة العبرانيين هذه المعاملة السيئة للأنبياء بقوله إنهم: «عُذِّبُوا.. تَجَرَّبُوا فِي هُزْءٍ وَجَلْدٍ، ثُمَّ فِي قُيُودٍ أَيْضاً وَحَبْسٍ. رُجِمُوا، نُشِرُوا، جُرِّبُوا، مَاتُوا قَتْلاً بِالسَّيْفِ، طَافُوا فِي جُلُودِ غَنَمٍ وَجُلُودِ مِعْزًى، مُعْتَازِينَ مَكْرُوبِينَ مُذَلِّينَ، وَهُمْ لَمْ يَكُنِ الْعَالَمُ مُسْتَحِقّاً لَهُمْ. تَائِهِينَ فِي بَرَارِيَّ وَجِبَالٍ وَمَغَايِرَ وَشُقُوقِ الأَرْضِ» (عبرانيين 11: 35–38).

ولمثل هؤلاء الذين استهانوا برسل صاحب الكرم، وافتكروا أنه سافر ولن يعود، يقول الوحي مؤنِّباً: «أَمْ تَسْتَهِينُ بِغِنَى لُطْفِهِ وَإِمْهَالِهِ وَطُولِ أَنَاتِهِ، غَيْرَ عَالِمٍ أَنَّ لُطْفَ اللهِ إِنَّمَا يَقْتَادُكَ إِلَى التَّوْبَةِ؟ وَلَكِنَّكَ مِنْ أَجْلِ قَسَاوَتِكَ وَقَلْبِكَ غَيْرِ التَّائِبِ تَذْخَرُ لِنَفْسِكَ غَضَباً فِي يَوْمِ الْغَضَبِ وَاسْتِعْلاَنِ دَيْنُونَةِ اللهِ الْعَادِلَةِ، الَّذِي سَيُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ حَسَبَ أَعْمَالِهِ. أَمَّا الَّذِينَ بِصَبْرٍ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ يَطْلُبُونَ الْمَجْدَ وَالْكَرَامَةَ وَالْبَقَاءَ، فَبِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ. وَأَمَّا الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَهْلِ التَّحَزُّبِ، وَلاَ يُطَاوِعُونَ لِلْحَقِّ بَلْ يُطَاوِعُونَ لِلإِثْمِ، فَسَخَطٌ وَغَضَبٌ، شِدَّةٌ وَضِيقٌ عَلَى كُلِّ نَفْسِ إِنْسَانٍ يَفْعَلُ الشَّرَّ» (رومية 2: 4–9).

3 – أرسل الابن:

أظهر صاحبُ الكرم المزيد من طول الأناة على الكرامين الأردياء الذين أهانوا أنبياءه وقتلوهم، وفي محبته وعدالته لم يشأ أن يهلكهم قبل أن يمنحهم كل فرصة للتوبة والنجاة، وهو القائل: «هَلْ مَسَرَّةً أُسَرُّ بِمَوْتِ الشِّرِّيرِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ؟ أَلاَ بِرُجُوعِهِ عَنْ طُرُقِهِ فَيَحْيَا؟» (حزقيال 18: 23). وكانت آخر فرصة قدَّمها لهم أن أرسل ابنه، وقال «يَهَابُونَ ابْنِي» ليقبلوه ويكرموه ويقدموا له الثمر، رغم وجود كل احتمال أن يفعلوا به ما سبق أن فعلوه بالعبيد! ولأنهم أردياء فكروا في قتله باعتباره الوارث، ظانين أنهم بهذا يرثون الأرض وما عليها، وكأن الميراث يؤخذ عنوة وليس بالحق، بالشرِّ لا بالمحبة!

«اَللهُ، بَعْدَ مَا كَلَّمَ الآبَاءَ بِالأَنْبِيَاءِ قَدِيماً، بِأَنْوَاعٍ وَطُرُقٍ كَثِيرَةٍ، كَلَّمَنَا فِي هَذِهِ الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ فِي ابْنِهِ – الَّذِي جَعَلَهُ وَارِثاً لِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي بِهِ أَيْضاً عَمِلَ الْعَالَمِينَ. الَّذِي، وَهُوَ بَهَاءُ مَجْدِهِ، وَرَسْمُ جَوْهَرِهِ، وَحَامِلٌ كُلَّ الأَشْيَاءِ بِكَلِمَةِ قُدْرَتِهِ، بَعْدَ مَا صَنَعَ بِنَفْسِهِ تَطْهِيراً لِخَطَايَانَا، جَلَسَ فِي يَمِينِ الْعَظَمَةِ فِي الأَعَالِي، صَائِراً أَعْظَمَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ بِمِقْدَارِ مَا وَرِثَ اسْماً أَفْضَلَ مِنْهُمْ» (عبرانيين 1: 1–4).

والمسيح هو الابن الوحيد، الذي سُرَّ الآب به (متى 3: 17 و17: 5)، وبنويته روحية لا جسدية، لا زوجة فيها ولا صاحبة، فيقول الآب للابن على لسان صاحب المزامير: «أَنْتَ ابْنِي. أَنَا الْيَوْمَ وَلَدْتُكَ» (مزمور 2: 7 وعبرانيين 1: 5). أما في البنوية البشرية حيث الزوجة، فيقول الأب لابنه: «أنا اليوم ولدتك. أنت ابني» لأنه

قبل ميلاد الابن لا يكون الأب أباً ولا يكون الابن ابناً، فعلاقة البنوية والأبوية لا تبدأ إلا بعد ولادة الابن. أما المسيح فهو الابن الأزلي، مولود غير مخلوق، موجود من قبل أن يولد من العذراء القديسة مريم.

وجاءت إرسالية المسيح بعد إرسالية العبيد، لأنه الأعلى والأسمى، فلا يمكن أن يجيء بعد الابن رسلٌ ولا أنبياء.. لقد أرسل الله المسيح بعد أن أرسل موسى، والمسيح أعظم من موسى. وفي هذا يقول الوحي: «لاَحِظُوا رَسُولَ اعْتِرَافِنَا وَرَئِيسَ كَهَنَتِهِ الْمَسِيحَ يَسُوعَ، حَالَ كَوْنِهِ أَمِيناً لِلَّذِي أَقَامَهُ، كَمَا كَانَ مُوسَى أَيْضاً فِي كُلِّ بَيْتِهِ. فَإِنَّ هَذَا (المسيح) قَدْ حُسِبَ أَهْلاً لِمَجْدٍ أَكْثَرَ مِنْ مُوسَى، بِمِقْدَارِ مَا لِبَانِي الْبَيْتِ مِنْ كَرَامَةٍ أَكْثَرَ مِنَ الْبَيْتِ. لأَنَّ كُلَّ بَيْتٍ يَبْنِيهِ إِنْسَانٌ مَا، وَلَكِنَّ بَانِيَ الْكُلِّ هُوَ اللهُ. وَمُوسَى كَانَ أَمِيناً فِي كُلِّ بَيْتِهِ كَخَادِمٍ، شَهَادَةً لِلْعَتِيدِ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِهِ (أي المسيحية). وَأَمَّا الْمَسِيحُ فَكَابْنٍ عَلَى بَيْتِهِ. وَبَيْتُهُ نَحْنُ إِنْ تَمَسَّكْنَا بِثِقَةِ الرَّجَاءِ وَافْتِخَارِهِ ثَابِتَةً إِلَى النِّهَايَةِ» (عبرانيين 3: 1-6).

«مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هَذَا، وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا». لقد ذهب الابن إلى الكرامين، فاستهانوا به وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه! جاءهم متواضعاً، مولوداً في مذود بسيط ليستطيع البسطاء والعظماء أن يأتوا إليه، وأخلى نفسه آخذاً صورة عبد (فيلبي 2: 7)، فألقوا القبض عليه وأخذوه خارج أورشليم وصلبوه، لأنهم لم يصدقوا أن المولود في مذود هو «اللهُ الَّذِي ظَهَرَ فِي الْجَسَدِ» (1تيموثاوس 3: 16). ومن يقول إن موته وصلبه هو قوة الله وحكمة الله؟ ومن يقول إن الذي يُصلب ويُدفن يقوم ويصعد، وينتظر البشر مجيئه ثانيةً قاضياً عادلاً للعالم كله؟ «مَنْ صَدَّقَ خَبَرَنَا، وَلِمَنِ اسْتُعْلِنَتْ ذِرَاعُ الرَّبِّ؟.. مُحْتَقَرٌ وَمَخْذُولٌ مِنَ النَّاسِ. رَجُلُ أَوْجَاعٍ وَمُخْتَبِرُ الْحُزْنِ، وَكَمُسَتَّرٍ عَنْهُ وُجُوهُنَا. مُحْتَقَرٌ فَلَمْ نَعْتَدَّ بِهِ.. وَهُوَ مَجْرُوحٌ لأَجْلِ مَعَاصِينَا، مَسْحُوقٌ لأَجْلِ آثَامِنَا. تَأْدِيبُ سَلاَمِنَا عَلَيْهِ، وَبِحُبُرِهِ شُفِينَا» (إشعياء 53: 1، 3، 5).

إن الإعجاز الأكبر هو أن الله افتدانا من لعنة الناموس، ورفع عنا خطايانا بموت ابنه على الصليب.. لقد أشار قيافا على اليهود أنه خيرٌ أن يموت إنسان واحدٌ عن الشعب (يوحنا 18: 14)، لكن المسيح لم يمُت عن شعب واحد، بل عن البشر جميعاً «وَهُوَ مَاتَ لأَجْلِ الْجَمِيعِ كَيْ يَعِيشَ الأَحْيَاءُ فِيمَا بَعْدُ لاَ لأَنْفُسِهِمْ، بَلْ لِلَّذِي مَاتَ لأَجْلِهِمْ وَقَامَ» (2كورنثوس 5: 15).

لقد رفض «البناؤون» (شيوخُ اليهود) المسيحَ، مع أنه «حجر الزاوية الوحيد». وهذا ما أعلنه الرسول بطرس عندما امتلأ من الروح القدس، وقال لشيوخ اليهود: «يَا رُؤَسَاءَ الشَّعْبِ وَشُيُوخَ إِسْرَائِيلَ.. فَلْيَكُنْ مَعْلُوماً عِنْدَ جَمِيعِكُمْ وَجَمِيعِ شَعْبِ إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ بِاسْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ النَّاصِرِيِّ الَّذِي صَلَبْتُمُوهُ أَنْتُمُ، الَّذِي أَقَامَهُ اللهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، بِذَاكَ وَقَفَ هَذَا (الرجل المولود أعرج) أَمَامَكُمْ صَحِيحاً. هَذَا (المسيح) هُوَ الْحَجَرُ الَّذِي احْتَقَرْتُمُوهُ أَيُّهَا الْبَنَّاؤُونَ، الَّذِي صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ» (أعمال 4: 8، 10، 11). وعاد ليسجِّل بإرشاد الروح القدس هذا كتابةً: «لِذَلِكَ يُتَضَمَّنُ أَيْضاً فِي الْكِتَابِ: «هَئَنَذَا أَضَعُ فِي صِهْيَوْنَ حَجَرَ زَاوِيَةٍ مُخْتَاراً كَرِيماً، وَالَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لَنْ يُخْزَى». فَلَكُمْ أَنْتُمُ الَّذِينَ تُؤْمِنُونَ الْكَرَامَةُ، وَأَمَّا لِلَّذِينَ لاَ يُطِيعُونَ فَالْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ» (1بطرس 2: 6، 7). وهو عين ما خاطب المسيح به أهل عاصمة اليهود: «يَا أُورُشَلِيمُ يَا أُورُشَلِيمُ، يَا قَاتِلَةَ الأَنْبِيَاءِ وَرَاجِمَةَ الْمُرْسَلِينَ إِلَيْهَا، كَمْ مَرَّةٍ أَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَ أَوْلاَدَكِ كَمَا تَجْمَعُ الدَّجَاجَةُ فِرَاخَهَا تَحْتَ جَنَاحَيْهَا وَلَمْ تُرِيدُوا. هُوَذَا بَيْتُكُمْ يُتْرَكُ لَكُمْ خَرَاباً!» (لوقا 13: 34، 35).

لقد رفض شيوخ اليهود المسيح، فحقَّ عليهم حكم الهلاك «لأنّ مَنْ سَقَطَ عَلَى هَذَا الْحَجَرِ يَتَرَضَّضُ» لأنه احتقر الحجر. «وَمَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ يَسْحَقُهُ» كما كان يحدث وقت رجم المجرمين، فتمَّت فيهم النبوَّة: «وَيَكُونُ مَقْدِساً وَحَجَرَ صَدْمَةٍ وَصَخْرَةَ عَثْرَةٍ لِبَيْتَيْ إِسْرَائِيلَ، وَفَخّاً وَشَرَكاً لِسُكَّانِ أُورُشَلِيمَ. فَيَعْثُرُ بِهَا كَثِيرُونَ وَيَسْقُطُونَ، فَيَنْكَسِرُونَ وَيَعْلَقُونَ فَيُلْقَطُونَ» (إشعياء 8: 14، 15).

ثانياً – الكرامون

الكرامون في هذا المثل هم بنو إسرائيل الذين اختارهم الله لنشر كلمته وشريعته بين الشعوب، وقال لهم: «إِنْ سَمِعْتُمْ لِصَوْتِي وَحَفِظْتُمْ عَهْدِي تَكُونُونَ لِي خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ. فَإِنَّ لِي كُلَّ الأَرْضِ. وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي مَمْلَكَةَ كَهَنَةٍ وَأُمَّةً مُقَدَّسَةً» (خروج 19: 5، 6). ولكنهم لم يسمعوا صوته ولم يحفظوا عهده، فوبَّخهم توبيخ الحب بقوله: «لأُنْشِدَنَّ عَنْ حَبِيبِي نَشِيدَ مُحِبِّي لِكَرْمِهِ: كَانَ لِحَبِيبِي كَرْمٌ عَلَى أَكَمَةٍ خَصِبَةٍ، فَنَقَبَهُ، وَنَقَّى حِجَارَتَهُ، وَغَرَسَهُ كَرْمَ سَوْرَقَ، وَبَنَى بُرْجاً فِي وَسَطِهِ، وَنَقَرَ فِيهِ أَيْضاً مِعْصَرَةً. فَانْتَظَرَ أَنْ يَصْنَعَ عِنَباً، فَصَنَعَ عِنَباً رَدِيئاً» (إشعياء 5: 1، 2). ولكنه لم يتركهم في بُعدهم، بل أرسل إليهم ابنه الحبيب الذي «إِلَى خَاصَّتِهِ جَاءَ، وَخَاصَّتُهُ لَمْ تَقْبَلْهُ» (يوحنا 1: 11). ولما رفضوه وصلبوه تمَّ فيهم قول المسيح: «إِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ وَيَتَّكِئُونَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ، وَأَمَّا بَنُو الْمَلَكُوتِ فَيُطْرَحُونَ إِلَى الظُّلْمَةِ الْخَارِجِيَّةِ. هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الأَسْنَانِ» (متى 8: 11، 12).

ولا زال الرب واقفاً يقرع على باب كل قلب، ومن له أذنان للسمع فليسمع، فهو لا يُجبر أحداً أن يفتح له. فإن سمعت صوته وفتحت قلبك له تصبح له ابناً. أما إن رفضته فستخسر نصيبك الصالح، وتكون عبداً لإبليس.. الأجدر بك أن تكرم الابن وتشكره لأنه استأمنك على الكثير، كما استأمن أولئك الكرامين على كرمه. إن كنت مثل شاول الطرسوسي، مضطهد الكنيسة، فاسمع قول المسيح: «صَعْبٌ عَلَيْكَ أَنْ تَرْفُسَ مَنَاخِسَ» (أعمال 9: 5). تُب واقبل المسيح الابن الحبيب، فيفتح أمامك باب الحياة الأبدية ويجعلك كارزاً بالإنجيل. إنه يمنحك حرية الاختيار، ثم يطالبك بتقديم حساب وكالتك الذي يجب أن تقدِّم فيه إجابتك على سؤالين: هل قبلت الابن المخلِّص؟ وهل قدَّمت ثمراً صالحاً؟. وهو لا يبدأ بسؤالك عن الثمر، بل عن قبول الابن، ثم عن الثمر الصالح، فابدأ بالخضوع لله وقبول نعمة المسيح المجانية، فتثمر فيك عملاً صالحاً، وتقول مع سائر المفديين: «لأَنَّنَا نَحْنُ عَمَلُهُ، مَخْلُوقِينَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، قَدْ سَبَقَ اللهُ فَأَعَدَّهَا لِكَيْ نَسْلُكَ فِيهَا» (أفسس 2: 10).

لم يكن الكرامون الأردياء أصحاب الكرم، لكنهم كانوا وكلاء عن صاحبه، فتوقَّع منهم أن يأتوه بالثمر، ولكنهم كانوا وكلاء أردياء.. ونحن اليوم وكلاء من الله على أولادنا ووقتنا وممتلكاتنا، فكلها عطايا الله لنا. وهو يمنحنا الحرية لنطيعه أو نعصاه، ولا بد أن يطالبنا يوماً بحقوقه، قائلاً: «أَعْطِ حِسَابَ وِكَالَتِكَ» وهنيئاً لك إن كنت أميناً له فيقول لك: «نِعِمَّا أَيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ وَالأَمِينُ. كُنْتَ أَمِيناً فِي الْقَلِيلِ فَأُقِيمُكَ عَلَى الْكَثِيرِ. ادْخُلْ إِلَى فَرَحِ سَيِّدِكَ» (متى 25: 21) «لأَنَّهُ أَقَامَ يَوْماً هُوَ فِيهِ مُزْمِعٌ أَنْ يَدِينَ الْمَسْكُونَةَ بِالْعَدْلِ بِرَجُلٍ قَدْ عَيَّنَهُ، مُقَدِّماً لِلْجَمِيعِ إِيمَاناً إِذْ أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ» (أعمال 17: 31).

ويحذرنا المثل من العصيان كما حذَّر بني إسرائيل من قبل، ولكنهم لم يقبلوا التحذير، فأُخربت عاصمتهم وتدمَّر هيكلهم، وفقدوا امتيازاتهم. وكان لا بد أن ينفذ الله خطته لفداء البشر، فأوجد آخرين أمناء من الأمم ليقوموا بما لم يقُم اليهود به.

واليوم إن لم تسمع النداء الإلهي وتثمر عملاً صالحاً وخدمةً مقدسة، يختار الله من يؤدي له الخدمة، لأن عمله لا يمكن أن يتعطل. أما أنت فستضيِّع على نفسك فرصة الحصول على البركة. ومن المفيد أن نسمع تحذير مُردَخاي للملكة أستير: «لاَ تَفْتَكِرِي فِي نَفْسِكِ أَنَّكِ تَنْجِينَ فِي بَيْتِ الْمَلِكِ دُونَ جَمِيعِ الْيَهُودِ، لأَنَّكِ إِنْ سَكَتِّ سُكُوتاً فِي هَذَا الْوَقْتِ يَكُونُ الْفَرَجُ وَالنَّجَاةُ لِلْيَهُودِ مِنْ مَكَانٍ آخَرَ، وَأَمَّا أَنْتِ وَبَيْتُ أَبِيكِ فَتَبِيدُونَ. وَمَنْ يَعْلَمُ إِنْ كُنْتِ لِوَقْتٍ مِثْلِ هَذَا وَصَلْتِ إِلَى الْمُلْكِ؟» (أستير 4: 13، 14).

سؤالان

1 – ما هي مسؤوليات رب البيت من نحو أهل البيت، وكيف ترى الله «ربَّ بيت» العالم؟

2 – ما هو الفرق بين إرسالية العبيد وإرسالية الابن؟

2 – ضرورة التواضع

(أ) تواضع الاعتراف – مثل الفريسي والعشار لوقا 18: 9–14

(ب) تواضع السلوك – مثل المتكأ الأخير لوقا 14: 7–11

2- ضرورة التواضع

(أ) تواضع الاعتراف

مثَل الفريسي والعشار

9وَقَالَ لِقَوْمٍ وَاثِقِينَ بِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ أَبْرَارٌ وَيَحْتَقِرُونَ الآخَرِينَ هَذَا الْمَثَلَ: 10«إِنْسَانَانِ صَعِدَا إِلَى الْهَيْكَلِ لِيُصَلِّيَا، وَاحِدٌ فَرِّيسِيٌّ وَالآخَرُ عَشَّارٌ. 11أَمَّا الْفَرِّيسِيُّ فَوَقَفَ يُصَلِّي فِي نَفْسِهِ هَكَذَا: اَللَّهُمَّ أَنَا أَشْكُرُكَ أَنِّي لَسْتُ مِثْلَ بَاقِي النَّاسِ الْخَاطِفِينَ الظَّالِمِينَ الزُّنَاةِ، وَلاَ مِثْلَ هَذَا الْعَشَّارِ. 12أَصُومُ مَرَّتَيْنِ فِي الأُسْبُوعِ وَأُعَشِّرُ كُلَّ مَا أَقْتَنِيهِ.

13وَأَمَّا الْعَشَّارُ فَوَقَفَ مِنْ بَعِيدٍ، لاَ يَشَاءُ أَنْ يَرْفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ، بَلْ قَرَعَ عَلَى صَدْرِهِ قَائِلاً: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي أَنَا الْخَاطِئَ. 14أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ هَذَا نَزَلَ إِلَى بَيْتِهِ مُبَرَّراً دُونَ ذَاكَ، لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَّضِعُ، وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ» (لوقا 18: 9-14).

اعتاد اليهود أن يصلوا ثلاث مرات يومياً، في التاسعة صباحاً والثانية عشرة ظهراً والثالثة بعد الظهر، كما يقول الوحي عن النبي دانيال: «جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ، وَصَلَّى وَحَمَدَ قُدَّامَ إِلَهِهِ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ قَبْلَ ذَلِكَ» (دانيال 6: 10). وكان اليهود يعتقدون أن أكثر الصلوات فاعلية هي التي تُرفع في الهيكل، فكان الهيكل مفتوحاً دائماً أمام الشعب للصلاة والتأمل.

في هذا المثل روى المسيح عن شخصين يمثلان شريحتين من المجتمع اليهودي في ذلك الوقت، تصلحان لتكونا نموذجين لمجتمعهم ولمجتمعنا أيضاً، يعلِّماننا أن من يرفع نفسه يتَّضع، ومن يضع نفسه يرتفع. وصلاة الإنسان الانفرادية تكشف حقيقة نفسه، فهو يعبِّر فيها عن واقعه بإخلاص، لأنه يحدِّث الله العالم بكل شيء.

كان أحد المصلِّيين «فريسياً» ومعنى الكلمة في اللغة الأرامية «منعزل». فالفريسيون هم الذين اعتزلوا الناس ليتفرغوا للعبادة. وكانوا أول الأمر نبلاء خُلُقاً وأنقياء ديناً، لكن دخلاء انضمّوا إليهم ففسد حزبهم، واشتهر معظمهم بالرياء والعُجب بأنفسهم، حتى وصفهم يوحنا المعمدان بأنهم «أَوْلاَدُ الأَفَاعِي» (متى 3: 7).

أما المصلي الثاني فكان «عشّاراً» أي ملتزم جمع الأعشار (الضرائب). وكان المجتمع اليهودي يحتقر العشار ويعتبره خائناً لوطنه ودينه، لأنه يجمع من المواطنين ضرائب أكثر من المفروض عليهم، ثم يقدم بعض ما يجمعه للرومان المستعمِرين. فكان اليهود يبغضون العشارين ويمنعونهم من دخول الهيكل والمجامع والاشتراك في الصلاة.

بين هذين الشخصين المذكورين في المثَل وجها شبه، فهما متماثلان في أصلهما، فكلاهما «إِنْسَانٌ». وكلاهما «صَعِدَا لِيُصَلِّيَا». لكنهما كانا مختلفين في أمرين: في نظر المجتمع، وفي تقدير كلٍّ منهما لذاته، فالفريسي في نظر اليهود عامود الدين، ووطني مخلص، أما العشار فهو اللص الخائن لأهله ووطنه.. والفريسي معتزٌّ غاية الاعتزاز بنفسه، يقف في مكان الصدارة في الهيكل مصلياً «فِي نَفْسِهِ» منفصلاً عن سائر العابدين ومغترباً عن الله، يرفع أقوال الفم لا عبادة القلب، فيمدح نفسه وكأن الرب لا يعرف ما بداخله، ويُسقط خطاياه على الآخرين، وينبِّر على تقواه ويبرِّر نفسه متأكداً أنه في غير حاجة للغفران الإلهي! صحيحٌ أنه «صَعِدَ إِلَى الْهَيْكَلِ» لكن صعوده كان جغرافياً فقط، لأن الهيكل كان على تل، لكنه لم «يصعد» روحياً، ولا ارتفعت نفسه لتتَّجه إلى الله، مع أنه العارف بالقول: «هَلُمَّ نَصْعَدْ إِلَى جَبَلِ الرَّبِّ وَإِلَى بَيْتِ إِلَهِ يَعْقُوبَ، فَيُعَلِّمَنَا مِنْ طُرُقِهِ وَنَسْلُكَ فِي سُبُلِهِ» (ميخا 4: 2).

أما العشار فوقف من بعيد كأنه أبرص، وفي تواضع كامل وإحساس بالذنب لم يشأ أن يرفع عينيه نحو السماء، ولو أنه رفع قلبه لله في صلاة اعتراف طالباً الرحمة والغفران.

وقد اختلفت نتيجة صلاتيهما وتقييم الرب لهما، فلم يتبرر الفريسي، بينما نزل العشار إلى بيته مبرَّراً فإن «مَنْ يَكْتُمُ خَطَايَاهُ لاَ يَنْجَحُ، وَمَنْ يُقِرُّ بِهَا وَيَتْرُكُهَا يُرْحَمُ» (أمثال 28: 13)، و«لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَّضِعُ، وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ».

أولاً – صلاة من يرفع نفسه

1– من يرفع نفسه يظن أنه بار:

كان مفهوم البر عند الفريسي أنه يحفظ الشريعة وينفذ الوصايا، فرأى نفسه كامل البر لأنه في أصله عبراني مختون، وفي عمله تقي فاضل، وهو يعمل بكل الوصايا منذ حداثته، فصلى وكأنه يقول: «يا رب، أنت تطلب صوم يوم واحد في السنة، هو يوم الكفارة العظيم، الذي فيه نذلل نفوسنا (لاويين 16: 29–34)، أما أنا فأصوم مرتين في الأسبوع.. وأنت يا رب تطلب عشور المزروعات والبهائم فقط (كما جاء في تثنية 14: 22، 23) أما أنا فأعشِّر كل ما أقتنيه. أنا أحفظ الناموس، ولا شك أن لي كل حقوق الفريسي التقي المنعزل عن سائر البشر». وقد خلت هذه الصلاة من أي شعور بالتقصير أو الذنب. إنها بليغة اللغة منمَّقة الكلمات، ولعل الفريسي لو عاد في يومه ذلك إلى الهيكل ليصلي لكرَّر ذات هذه الكلمات العامرة بالكبرياء، الخالية من مخافة الله!

2 – من يرفع نفسه يفتخر:

عندما دخل الفريسي الهيكل تقدم إلى الأمام ليحتلَّ المركز الأول لأنه شعر بالتفوُّق على الباقين. وقف «يُصَلِّي فِي نَفْسِهِ» من نفسه، إلى نفسه، عن نفسه! فكانت صلاته صلاة افتخار بنفسه يرويها لنفسه، ذكر فيها اسم الله مرة واحدة، وأشار إلى نفسه ثلاث مرات!

ولم يكن هذا الفريسي مختلفاً عن زملائه الفريسيين في روحه المتعالية، فقد قال الفريسي «سمعان بن يوكي»: «إن كان هناك باران في العالم فهما أنا وابني. أما إذا كان هناك بار واحد فهو أنا!». وكانت صلاتهم اليومية: «أشكرك لأنك خلقتني يهودياً لا أممياً، حراً لا عبداً، رجلاً لا امرأة». أما المرأة اليهودية فكانت تصلي: «اللهم أشكرك لأنك خلقتني هكذا!». وسجل «بيراكوث» صلاة رفعها فريسي عام 70م تقول: «اللهم، أشكرك لأنك أعطيتني مكاناً للجلوس في بيتك للدرس، فلست ممن يجلسون في زوايا الشوارع. أنا أستيقظ مبكراً وهم يستيقظون مبكرين، لكني أبكر لأدرس الناموس وهم يبكرون للعمل الباطل. أنا أشتغل وهم يشتغلون، لكني أشتغل لنوال مجازاة، وهم يشتغلون بلا فائدة. أنا أحيا وهم يحيون، لكني أحيا وغايتي الحياة في العالم الآتي، وهم يحيون ونهايتهم حفرة الهلاك».

3 – من يرفع نفسه يحتقر الآخرين:

قال «أَنَا أَشْكُرُكَ أَنِّي لَسْتُ مِثْلَ بَاقِي النَّاسِ» الْخَاطِفِينَ الظَّالِمِينَ الزُّنَاةِ، وَلاَ مِثْلَ هَذَا الْعَشَّارِ» ووصفهم بأنهم خاطفون ظالمون زُناة. ثم قال: «وَلاَ مِثْلَ هَذَا الْعَشَّارِ». وكأنه يقول: «كلهم خطاة، أما أنا فأفضل منهم جميعاً!». صحيحٌ أنه لا يخطف ولا يظلم ولا يزني ولا يسلب الناس، ولكن خطيته الكبرى كانت الكبرياء! لقد رأى نفسه غنياً بأعماله الصالحة وقد استغنى. ولكنه في نظر الرب فقير وأعمى وعريان، يحتاج أن يطلب من الله ذهباً مصفى بالنار لكي يستغني، وثياباً بيضاً لكي يلبس، وكُحلاً يكحل به عينيه لكي يبصر نفسه على حقيقتها (رؤيا 3: 17، 18).

قارن الفريسي نفسه بالخطاة، فوجد نفسه متديِّناً، سليل عائلة من المتدينين العظماء، فلم يرَ عنده احتياجاً يطلب من الرب أن يسدده، ولا تقصيراً أو إهمالاً يكمله، مع أن الصوت الإلهي يقول له: «لاَ يَفْتَخِرَنَّ الْحَكِيمُ بِحِكْمَتِهِ، وَلاَ يَفْتَخِرِ الْجَبَّارُ بِجَبَرُوتِهِ، وَلاَ يَفْتَخِرِ الْغَنِيُّ بِغِنَاهُ. بَلْ بِهذَا لِيَفْتَخِرَنَّ الْمُفْتَخِرُ: بِأَنَّهُ يَفْهَمُ وَيَعْرِفُنِي أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الصَّانِعُ رَحْمَةً وَقَضَاءً وَعَدْلاً فِي الأَرْضِ، لأَنِّي بِهذِهِ أُسَرُّ، يَقُولُ الرَّبُّ» (إرميا 9: 23، 24).

وفي احتقاره للآخرين نصَّب نفسه قاضياً على ضمائرهم وأصدر حكمه الظالم عليهم، فقال عن العشار: «هذَا». وهو ما قاله الابن الأكبر لأبيه عن أخيه الضال الراجع: «ابْنُكَ هذَا» (لوقا 15: 30). وكان الكتبة والفريسيون قد أصدروا حكماً ظالماً على اليهود الذين آمنوا بالمسيح، فقالوا عنهم: «هذَا الشَّعْبَ الَّذِي لاَ يَفْهَمُ النَّامُوسَ هُوَ مَلْعُونٌ» (يوحنا 7: 49)، ناسين الحكمة القائلة: «مَنْ أَنْتَ الَّذِي تَدِينُ عَبْدَ غَيْرِكَ؟ هُوَ لِمَوْلاَهُ يَثْبُتُ أَوْ يَسْقُطُ. وَلكِنَّهُ سَيُثَبَّتُ لأَنَّ اللهَ قَادِرٌ أَنْ يُثَبِّتَهُ» (رومية 14: 4).

4 – من يرفع نفسه لا يعترف بخطاياه:

تقدَّم الفريسي إلى الله بغير شعور بالحاجة إلى غفران، لأنه ظنَّ أنه اشترى ملكوت الله بما قام به من أصوام وما دفعه من تبرعات. لكن ملكوت الله لا يُشترى «لأَنَّهُ لاَ فَرْقَ. إِذِ الْجَمِيعُ أَخْطَأُوا وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ اللهِ، مُتَبَرَّرِينَ مَجَّاناً بِنِعْمَتِهِ بِالْفِدَاءِ الَّذِي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي قَدَّمَهُ اللهُ كَفَّارَةً بِالإِيمَانِ بِدَمِهِ، لإِظْهَارِ بِرِّهِ، مِنْ أَجْلِ الصَّفْحِ عَنِ الْخَطَايَا السَّالِفَةِ بِإِمْهَالِ اللهِ. لإِظْهَارِ بِرِّهِ فِي الزَّمَانِ الْحَاضِرِ، لِيَكُونَ بَارّاً وَيُبَرِّرَ مَنْ هُوَ مِنَ الإِيمَانِ بِيَسُوعَ» (رومية 3: 22–26).

إن الإنسان عاجز عن الحصول على الغفران بمجهوده، لهذا دبَّر الله المحب فداء البشر بموت المسيح على الصليب «لأَنَّهُ هكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ» (يوحنا 3: 16). ومع أن الصليب ترتيب إلهي، إلا أنه يشكِّل صخرة صدمةً وحجر عثرة لكثيرين، لأنه يعلن أن الإنسان خاطئ بطبيعته وبعمله، وهو لا يستطيع أن ينجي نفسه من العقاب، ولا يمكن أن ينال رضا الله مهما فعل. ومن المؤسف أن «كَلِمَةَ الصَّلِيبِ عِنْدَ الْهَالِكِينَ جَهَالَةٌ». لكننا نشكر الله لأنها «عِنْدَنَا نَحْنُ الْمُخَلَّصِينَ فَهِيَ قُوَّةُ اللهِ» (1كورنثوس 1: 18).

هذا المثَل يوبِّخ كل من يثق في صلاحه ويظن أنه يتبرر باجتهاده، فإن سبيل التبرير الوحيد هو الإيمان بما فعله المسيح على الصليب لأجل الخاطئ التائب، والذي كانت ذبائح العهد القديم رموزاً له. أما من يتكل على أعماله الصالحة فيشبه قدماء المصريين الذين كانوا يظنون أن الإله «أوزيريس» يزن أعمالهم الصالحة مقابل أعمالهم الشريرة، فمن رجحت كفة حسناته ينجو، ومن رجحت كفة سيئاته يهلك. ولا يمكن أن تزيد صالحاتنا على سيئاتنا لأن أعمالنا الشريرة ليست فقط ما نرتكبه من خطايا، بل ما لا نفعله من صلاح «فَمَنْ يَعْرِفُ أَنْ يَعْمَلَ حَسَناً وَلاَ يَعْمَلُ، فَذلِكَ خَطِيَّةٌ لَهُ» (يعقوب 4: 17). كما أننا «فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ نَعْثُرُ جَمِيعُنَا» (يعقوب 3: 2). فكم مرة أهملنا من يحتاجون لمساعدتنا ونحن قادرون، وبخلنا عليهم بمالنا ووقتنا ونصيحتنا! و«إِنْ لَمْ يَزِدْ بِرُّكُمْ عَلَى الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ لَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ» (متى 5: 20).

ثانياً – صلاة من يضع نفسه

كان اليهود يسمّون العشارين «خطاةً» وينسبونهم إلى عابدي الوثن، بسبب ما كانوا يقاسونه من مضايقاتهم وتعنتهم وجبايتهم منهم أكثر مما يجب. وبالرغم من كل هذه الكراهية الموجَّهة إلى العشار فقد أحبه المسيح ورأى فيه إنساناً صعد ليصلي، قبل الله صلاته، فنزل إلى بيته مبرَّراً.

1– من يضع نفسه يرى عدم استحقاقها:

صعد العشار من وهدة الخطية ليمثُل بين يدي الله القدوس، ووقف من بعيد لأنه أراد أن يتحاشى نظرات الناس إليه، ولأنه كان يطلب لقاءً شخصياً مع الله، وكله أمل في رحمته وغفرانه. وقد دفعه شعوره بالتقصير والخطية إلى الوقوف في خوف من الله، لاجئاً إلى مراحمه طالباً العفو، وهو يعلم أنه عاجز عن مساعدة نفسه، وأن لا سبيل للحصول على الغفران إلا بإنعامٍ إلهي.

ويالها من مفارقة بين الذي وقف قريباً من الهيكل فصار بعيداً عن الغفران، والذي وقف من بعيد تواضعاً وإحساساً بعدم الاستحقاق فصار قريباً، كما قيل: «وَلَكِنِ الآنَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، أَنْتُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ قَبْلاً بَعِيدِينَ صِرْتُمْ قَرِيبِينَ بِدَمِ الْمَسِيحِ» (أفسس 2: 13)، و«طُوبَى لِلَّذِي غُفِرَ إِثْمُهُ، وَسُتِرَتْ خَطِيَّتُهُ. طُوبَى لِرَجُلٍ لاَ يَحْسِبُ لَهُ الرَّبُّ خَطِيَّةً» (مزمور 32: 1، 2). «فَانْتُزِعَ إِثْمُكَ وَكُفِّرَ عَنْ خَطِيَّتِكَ» (إشعياء 6: 7). وكلمة «كفارة» مأخوذة عن العبرية «كافار» التي أخذت عنها الإنجليزية cover أي يغطي أو يستر. وينتفع بالكفارة من يعرف عجزه ويعترف به. «وَأَمَّا الَّذِي لاَ يَعْمَلُ وَلَكِنْ يُؤْمِنُ بِالَّذِي يُبَرِّرُ الْفَاجِرَ، فَإِيمَانُهُ يُحْسَبُ لَهُ بِرّاً. كَمَا يَقُولُ دَاوُدُ أَيْضاً فِي تَطْوِيبِ الإِنْسَانِ الَّذِي يَحْسِبُ لَهُ اللهُ بِرّاً بِدُونِ أَعْمَال: «طُوبَى لِلَّذِينَ غُفِرَتْ آثَامُهُمْ وَسُتِرَتْ خَطَايَاهُمْ» (رومية 4: 5-7) كما آمن إبراهيم فحُسب إيمانه له براً (تكوين 15: 6). إذا هي مسألة حسبان، لأن بر المسيح حُسب له، فمُحيت خطاياه الماضية وسُترت.

في أعماق الإنسان حاسة دينية تنبئه بأنه لا بد أن يقابل الله كديان، فقال المرنم: «لاَ تَدْخُلْ فِي الْمُحَاكَمَةِ مَعَ عَبْدِكَ، فَإِنَّهُ لَنْ يَتَبَرَّرَ قُدَّامَكَ حَيٌّ» (مزمور 143: 2). والتفكير في الله الديان يملأ الخاطئ بالرعب. هذا ما حدث مع العشار ومع الابن الضال، الذي رجع إلى نفسه وإلى الله فقال لأبيه: «يَا أَبِي، أَخْطَأْتُ إِلَى السَّمَاءِ وَقُدَّامَكَ، وَلَسْتُ مُسْتَحِقّاً بَعْدُ أَنْ أُدْعَى لَكَ ابْناً» (لوقا 15: 21). ومقابلة الديان العادل بالخاطئ الأثيم لا بد تنتج الحكم والإدانة. ولكن ما أرأف الرب الرحيم المنعم بالخلاص، الذي يلجأ إليه الإنسان المذنب الهالك فيوصف بالقول: «كَانَ مَيِّتاً فَعَاشَ، وَكَانَ ضَالاً فَوُجِدَ» (لوقا 15: 24).

2 – من يضع نفسه يعترف بخطاياه:

شعر العشار بثقل خطيته، لهذا «وَقَفَ مِنْ بَعِيدٍ؛ لاَ يَشَاءُ أَنْ يَرْفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ؛ بَلْ قَرَعَ عَلَى صَدْرِهِ». كان يعترف بكل حواسه، فكانت قدماه مترددتين خوفاً من أن يدنس الهيكل، ولم يجرؤ على الركوع خشية أن ترفض السماء صلاته، وطأطأ رأسه ونظرت عيناه إلى الأرض خجلاً واتضاعاً، وقرع بيديه على صدره في إحساس باللوم والندم والتوبة الحقيقية، واعترف بلسانه «أنا» «ال» «خاطئ» لأنه رأى نفسه كما لو كان الشرير الوحيد الذي أخطأ إلى الله وإلى وطنه وإلى إخوته، وتذلل أمام الله ليقبل توبته، فعرف أنه «صَادِقَةٌ هِيَ الْكَلِمَةُ وَمُسْتَحِقَّةٌ كُلَّ قَبُولٍ: أَنَّ الْمَسِيحَ يَسُوعَ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ لِيُخَلِّصَ الْخُطَاةَ الَّذِينَ أَوَّلُهُمْ أَنَا» (1تيموثاوس 1: 15).

لم يفكر العشار في مركزه المالي مع أنه كان ثرياً، ولا اعتمد على مكانته السياسية، بالرغم من حماية الدولة الرومانية له والسلطة التي أعطتها له. لكنه رأى نفسه أرضياً زائلاً، محطماً كسيراً، شريراً دنساً، بدون مجد شخصي، لا رجاء له إلا في رحمة الرب وغفرانه، فدعا ربَّه «اللهم» كما دعا الفريسي «اللهم» ولكنه دعاه بقلب متضع: «ارْحَمْنِي» مردداً صلاة جدِّه داود: «ارْحَمْنِي يَا اللهُ حَسَبَ رَحْمَتِكَ، حَسَبَ كَثْرَةِ رَأْفَتِكَ امْحُ مَعَاصِيَّ. اغْسِلْنِي كَثِيراً مِنْ إِثْمِي، وَمِنْ خَطِيَّتِي طَهِّرْنِي لأَنِّي عَارِفٌ بِمَعَاصِيَّ، وَخَطِيَّتِي أَمَامِي دَائِماً» (مزمور 51: 1-3).

3 – من يضع نفسه يرفعه الله:

استُجيبت صلاة العشار لأنه وضع نفسه في صلاة شخصية، محددة الطلب، بثقة كاملة في الاستجابة، لأنه كان يعلم أن الله يراه ويسمعه ويستجيبه. دخل الهيكل مثقلاً بالذنوب وخرج منه مرفوعاً بالرحمة. دخل مرتعباً من الله وخرج فرحاً بمحبة الله ورضاه. دخل يقرع صدره وخرج يهتف «هللويا».

ولا يقول المسيح في المثَل إن العشار «نزل باراً» بل يقول إنه «نَزَلَ مُبَرَّراً». فليس لدى الإنسان برٌّ مهما كانت تقواه! لكن العشار الخاطئ حصل على «التبرير» لأنه اعترف ولجأ مؤمناً بالوحيد القادر أن يبرره.

رفع الفريسي نفسه وظن أنه صالح يستحق أن يتمتع بالبر الإلهي، فعمي عن حقيقة نفسه «لأَنَّهُ إِنْ كَانَ بِالنَّامُوسِ بِرٌّ، فَالْمَسِيحُ إِذاً مَاتَ بِلاَ سَبَبٍ» (غلاطية 2: 21). أما الذين يضعون أنفسهم، فيعترفون بخطيتهم كالعشار، ويخزون من عريهم كآدم وحواء، ويخجلون من رائحة الخنازير التي تفيح منهم مثل الابن الضال، فيحوِّلهم التبرير السماوي من حالة المجرمين المطلوبين للقصاص إلى امتياز الأبناء المبررين الذين يتمتعون بغفران الله وسلامه «لأَنَّكُمْ بِالنِّعْمَةِ مُخَلَّصُونَ، بِالإِيمَانِ، وَذَلِكَ لَيْسَ مِنْكُمْ. هُوَ عَطِيَّةُ اللهِ. لَيْسَ مِنْ أَعْمَالٍ كَيْلاَ يَفْتَخِرَ أَحَدٌ» (أفسس 2: 8، 9).

فلنجتهد أن نتقدم إلى عرش النعمة، لا كأتقياء، بل كخطاة يطلبون تبريره، ويعتمدون على المخلِّص الذي يطهر ضمائرنا ويغفر خطايانا. وهذا هو الرجاء الذي يمنحه الإنجيل لنا، لأنه إنجيل البشارة المفرحة لجميع التائبين، فالمسيح يقول: «لَمْ آتِ لأَدْعُوَ أَبْرَاراً بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ» (لوقا 5: 32)، والسبب واضح ومنطقي: «لا يَحْتَاجُ الأَصِحَّاءُ إِلَى طَبِيبٍ بَلِ الْمَرْضَى» (لوقا 5: 31).

سؤالان

1 – لماذا رفض الله صلاة الفريسي، ولماذا قبل صلاة العشار؟

2 – ما معنى كلمة «كفارة» اذكر أساس التكفير عن الخطية.

2- ضرورة التواضع

(ب) تواضع السلوك

مثل المتكأ الأخير

7وَقَالَ لِلْمَدْعُوِّينَ مَثَلاً وَهُوَ يُلاَحِظُ كَيْفَ اخْتَارُوا الْمُتَّكَآتِ الأُولَى: 8«مَتَى دُعِيتَ مِنْ أَحَدٍ إِلَى عُرْسٍ فَلاَ تَتَّكِئْ فِي الْمُتَّكَإِ الأَوَّلِ، لَعَلَّ أَكْرَمَ مِنْكَ يَكُونُ قَدْ دُعِيَ مِنْهُ، 9فَيَأْتِيَ الَّذِي دَعَاكَ وَإِيَّاهُ وَيَقُولَ لَكَ: أَعْطِ مَكَاناً لِهَذَا، فَحِينَئِذٍ تَبْتَدِئُ بِخَجَلٍ تَأْخُذُ الْمَوْضِعَ الأَخِيرَ. 10بَلْ مَتَى دُعِيتَ فَاذْهَبْ وَاتَّكِئْ فِي الْمَوْضِعِ الأَخِيرِ، حَتَّى إِذَا جَاءَ الَّذِي دَعَاكَ يَقُولُ لَكَ: يَا صَدِيقُ، ارْتَفِعْ إِلَى فَوْقُ. حِينَئِذٍ يَكُونُ لَكَ مَجْدٌ أَمَامَ الْمُتَّكِئِينَ مَعَكَ. 11لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَّضِعُ، وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ» (لوقا 14: 7-11).

جاء في التلمود اليهودي: «إذا وُجدت ثلاثة أماكن في وليمة، فإن المكان الأوسط هو أفضلها، يليه المكان الذي عن اليمين، ثم المكان الذي عن اليسار». وذات يوم دعا أحد الفريسيين المسيح للطعام في بيته، فلاحظ كيف اختار المدعوون أماكن الصدارة الأولى، فقدَّم نصيحته الحكيمة وهي أن يختار الضيف المكان الأخير، وعلَّق على هذا بالقول: «كُلّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَّضِعُ، وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ».

ولا زال المسيح يراقب البشر ويضعهم تحت ملاحظته ليرى ماذا يختارون، لأن اختيارهم يكشف عما في قلوبهم من كبرياء أو تواضع، قسوة أو رحمة، كراهية أو حب. فتصرفات الإنسان تكشف ما يكمن في أعماقه، كما أن ما ينطق به اللسان يكشف مكنونات القلب.. وقد جلس المسيح مرةً تُجاه الخزانة التي يضع فيها العابدون عطاياهم، وأخذ يراقب «كَيْفَ يُلْقِي الْجَمْعُ نُحَاساً فِي الْخَزَانَةِ». لم يراقب «كم» يلقون، بل «كَيْفَ» يلقون (مرقس 12: 42) «لأَنَّ عَيْنَيِ الرَّبِّ تَجُولاَنِ فِي كُلِّ الأَرْضِ لِيَتَشَدَّدَ مَعَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ كَامِلَةٌ نَحْوَهُ» (2أخبار 16: 9).

ولا شك أن الضيف الذي يختار المتكأ الأول حول مائدة الطعام يفعل هذا لأنه يشعر أنه أعظم من غيره، وأنه أجدر بالمكانة المتقدِّمة، لأنه سبق أن تعلَّم أن التواضع صفة مكروهة لأنها صفة العبيد. ولكن المسيح علَّمنا التواضع بمثاله وكلامه، فقد وُلد في مذود بسيط مع أنه الملك، ولم يكن له أين يسند رأسه مع أنه رب المسكونة والساكنين فيها (متى 8: 20). ثم علَّم أن الخير والكرامة يبدآن بالتواضع واختيار المكان الأخير، فينال المدعوُّ الرفعة. وهذا خيرٌ من البدء بالكبرياء واختيار المكان الأول، فيصيب المدعوَّ الخزيُ والخجل، وهو ما قاله الحكيم: «لاَ تَتَفَاخَرْ أَمَامَ الْمَلِكِ، وَلاَ تَقِفْ فِي مَكَانِ الْعُظَمَاءِ، لأَنَّهُ خَيْرٌ أَنْ يُقَالَ لَكَ: «ارْتَفِعْ إِلَى هُنَا» مِنْ أَنْ تُحَطَّ فِي حَضْرَةِ الرَّئِيسِ الَّذِي رَأَتْهُ عَيْنَاكَ» (أمثال 25: 6، 7).. وهو ما قاله الرسول بولس: «مُقَدِّمِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فِي الْكَرَامَةِ.. مُهْتَمِّينَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ اهْتِمَاماً وَاحِداً، غَيْرَ مُهْتَمِّينَ بِالأُمُورِ الْعَالِيَةِ، بَلْ مُنْقَادِينَ إِلَى الْمُتَّضِعِينَ. لاَ تَكُونُوا حُكَمَاءَ عِنْدَ أَنْفُسِكُمْ» (رومية 12: 10، 16).. وما قاله الرسول بطرس: «كُونُوا جَمِيعاً خَاضِعِينَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ، وَتَسَرْبَلُوا بِالتَّوَاضُعِ، لأَنَّ اللهَ يُقَاوِمُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَأَمَّا الْمُتَوَاضِعُونَ فَيُعْطِيهِمْ نِعْمَةً. فَتَوَاضَعُوا تَحْتَ يَدِ اللهِ الْقَوِيَّةِ لِكَيْ يَرْفَعَكُمْ فِي حِينِهِ» (1بطرس 5: 5، 6).. وما أعلنته العذراء المطوَّبة: «شَتَّتَ الْمُسْتَكْبِرِينَ بِفِكْرِ قُلُوبِهِمْ. أَنْزَلَ الأَعِزَّاءَ عَنِ الْكَرَاسِيِّ، وَرَفَعَ الْمُتَّضِعِينَ. أَشْبَعَ الْجِيَاعَ خَيْرَاتٍ، وَصَرَفَ الأَغْنِيَاءَ فَارِغِينَ» (لوقا 1: 51-53).

ولا زلنا نحتاج إلى هذا الدرس، فأولادنا يحبون الجلوس في مقعد السيارة الأمامي، أو إلى جوار النافذة لأنه الأفضل في نظرهم، والمتحدثون يذكرون مفاخرهم ونواحي قوتهم وما قدموه للفقراء وما خدموا به مجتمعهم وكنيستهم. لذلك قال المسيح: «احْتَرِزُوا مِنْ أَنْ تَصْنَعُوا صَدَقَتَكُمْ قُدَّامَ النَّاسِ لِكَيْ يَنْظُرُوكُمْ.. فَمَتَى صَنَعْتَ

صَدَقَةً فَلاَ تُصَوِّتْ قُدَّامَكَ بِالْبُوقِ كَمَا يَفْعَلُ الْمُرَاؤُونَ فِي الْمَجَامِعِ وَفِي الأَزِقَّةِ، لِكَيْ يُمَجَّدُوا مِنَ النَّاسِ» (متى 6: 1، 2).

ولم يكن المسيح هنا يعلِّم آداب السلوك، بل كان ينادي بتغيير دوافع البشر الداخلية التي تصنع السلوك، فالطبيب لا يهتم أولاً بارتفاع درجة حرارة المريض، بل بعلاج أسباب ارتفاعها. فليست المشكلة في اختيار المكان الأول للجلوس، لكن في نيَّة وأفكار القلب المتكبِّر المتعالي على الآخرين.

ويقدم الكتاب المقدس لنا شخصيات عظيمة متواضعة مع أن الله منحها كل شيء بسخاء، فموسى الذي مكث في حضرة الرب وقتاً طويلاً حتى انعكست نعمة الله على وجهه ببهاء، فصار وجهه يلمع حتى خاف الشعب أن يقتربوا إليه، لم يكن يعلم أن جلد وجهه صار يلمع (خروج 34: 29).

ويوحنا المعمدان الذي قال عنه المسيح إنه أعظم المولودين من النساء (متى 11: 11) تواضع وأنكر ذاته وقال عن نفسه «أَنَا صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ» (يوحنا 1: 23) فاعتبر نفسه مجرَّد صوت! وقال عن المسيح: «هُوَ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي الَّذِي صَارَ قُدَّامِي، الَّذِي لَسْتُ بِمُسْتَحِقٍّ أَنْ أَحُلَّ سُيُورَ حِذَائِهِ» (يوحنا 1: 27). وعندما تركه تلاميذه ليتبعوا المسيح لم يتذمر ولم تُجرَح كبرياؤه، بل قال: «يَنْبَغِي أَنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ، وَأَنِّي أَنَا أَنْقُصُ.. اَلَّذِي يَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ هُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ» (يوحنا 3: 30، 31).

ونرى في الرسول بولس صورة حية للتواضع وهو يقول: «بُولُسُ، عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، لأَجْلِ إِيمَانِ مُخْتَارِي اللهِ وَمَعْرِفَةِ الْحَقِّ» (تيطس 1: 1). «أَنَا بُولُسُ، أَسِيرُ الْمَسِيحِ يَسُوعَ لأَجْلِكُمْ.. أَنَا أَصْغَرُ جَمِيعِ الْقِدِّيسِينَ» (أفسس 3: 1، 8). «لأَنِّي أَصْغَرُ الرُّسُلِ، أَنَا الَّذِي لَسْتُ أَهْلاً لأَنْ أُدْعَى رَسُولاً» (1كورنثوس 15: 9). ومع أن الله ميَّزه بالصعود إلى الفردوس حيث سمع كلمات لا يُنطَق بها، إلا أنه لم يرتفع بفرط ما أعلنه الله له، وقال: «مِنْ جِهَةِ هَذَا أَفْتَخِرُ. وَلَكِنْ مِنْ جِهَةِ نَفْسِي لاَ أَفْتَخِرُ» (2كورنثوس 12: 4-10).

كل هؤلاء تتلمذوا على يد معلم صالح متواضع، قدم نفسه نموذجاً لما علَّم به، فغسل أرجل تلاميذه «قَبْلَ عِيدِ الْفِصْحِ وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ سَاعَتَهُ قَدْ جَاءَتْ لِيَنْتَقِلَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ إِلَى الآبِ، إِذْ كَانَ قَدْ أَحَبَّ خَاصَّتَهُ الَّذِينَ فِي الْعَالَمِ، أَحَبَّهُمْ إِلَى الْمُنْتَهَى.. يَسُوعُ وَهُوَ عَالِمٌ أَنَّ الآبَ قَدْ دَفَعَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَى يَدَيْهِ، وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَرَجَ وَإِلَى اللَّهِ يَمْضِي، قَامَ عَنِ الْعَشَاءِ، وَخَلَعَ ثِيَابَهُ وَأَخَذَ مِنْشَفَةً وَاتَّزَرَ بِهَا، ثُمَّ صَبَّ مَاءً فِي مِغْسَلٍ وَابْتَدَأَ يَغْسِلُ أَرْجُلَ التَّلاَمِيذِ وَيَمْسَحُهَا بِالْمِنْشَفَةِ الَّتِي كَانَ مُتَّزِراً بِهَا.. فَلَمَّا كَانَ قَدْ غَسَلَ أَرْجُلَهُمْ وَأَخَذَ ثِيَابَهُ وَاتَّكَأَ أَيْضاً، قَالَ لَهُمْ: «أَتَفْهَمُونَ مَا قَدْ صَنَعْتُ بِكُمْ؟.. فَإِنْ كُنْتُ وَأَنَا السَّيِّدُ وَالْمُعَلِّمُ قَدْ غَسَلْتُ أَرْجُلَكُمْ، فَأَنْتُمْ يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ يَغْسِلَ بَعْضُكُمْ أَرْجُلَ بَعْضٍ» (يوحنا 13: 1، 3-5، 12، 14).

فلنتضع أمامه لأننا لن ننسى اتضاعه، لأنه ترك لنا مثالاً لكي نتَّبع خطواته (1بطرس 2: 21).

أولاً – مساوئ رفع النفس

1 – تحذيرات الوحي من رفع النفس:

رفع النفس كبرياءً وتعظُّماً خطية كبيرة، حذرنا المسيح منها بقوله: «تَحَرَّزُوا مِنَ الْكَتَبَةِ الَّذِينَ يَرْغَبُونَ الْمَشْيَ بِالطَّيَالِسَةِ، وَالتَّحِيَّاتِ فِي الأَسْوَاقِ، وَالْمَجَالِسَ الأُولَى فِي الْمَجَامِعِ، وَالْمُتَّكَآتِ الأُولَى فِي الْوَلاَئِمِ» (مرقس 12: 38، 39). ومع أن الكتبة كانوا أساتذة الشريعة ومفسِّريها إلا أنهم رفعوا نفوسهم، وأرادوا أن يحتلوا المراكز الأولى، وأطالوا صلواتهم أمام الناس ليُظهروا تقواهم فينالون المديح، فقال المسيح لهم: «وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ، لأَنَّكُمْ تَأْكُلُونَ بُيُوتَ الأَرَامِلِ، ولِعِلَّةٍ تُطِيلُونَ صَلَوَاتِكُمْ. لِذَلِكَ تَأْخُذُونَ دَيْنُونَةً أَعْظَمَ» (متى 23: 14).

كانت خطية الكبرياء سبب سقوط أبوينا الأولين، إذ عصيا الرب وأطاعا نصيحة الحية التي قالت لهما: «يَوْمَ تَأْكُلاَنِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ» (تكوين 3: 5). ولهذا حذَّرنا الوحي بالقول: «لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ الْعَلِيُّ الْمُرْتَفِعُ سَاكِنُ الأَبَدِ الْقُدُّوسُ اسْمُهُ: فِي الْمَوْضِعِ الْمُرْتَفِعِ الْمُقَدَّسِ أَسْكُنُ، وَمَعَ الْمُنْسَحِقِ وَالْمُتَوَاضِعِ الرُّوحِ لأُحْيِيَ رُوحَ الْمُتَوَاضِعِينَ وَلأُحْيِيَ قَلْبَ الْمُنْسَحِقِينَ» (إشعياء 57: 15)، فقلب الرب القدوس، صاحب المكان العالي، نحو المسكين بالروح ليحييه، ونحو المتواضع ليرفعه، و«طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ» (متى 5: 3). أما عن المتكبر فيقول المرنم: «مُسْتَكْبِرُ الْعَيْنِ وَمُنْتَفِخُ الْقَلْبِ لاَ أَحْتَمِلُهُ.. لأَنَّ الرَّبَّ عَالٍ وَيَرَى الْمُتَوَاضِعَ، أَمَّا الْمُتَكَبِّرُ فَيَعْرِفُهُ مِنْ بَعِيدٍ» (مزمور 101: 5، 138: 6)، لأنّ رائحة كبريائه تزكم الأنوف! لهذا قال المسيح: «إِنْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ.. وَيَتْبَعْنِي» (لوقا 9: 23).

ولإمام الحكماء أقوال عظيمة عن خطورة الكبرياء، منها: «الْكِبْرِيَاءَ وَالتَّعَظُّمَ وَطَرِيقَ الشَّرِّ وَفَمَ الأَكَاذِيبِ أَبْغَضْتُ» (أمثال 8: 13) و«تَأْتِي الْكِبْرِيَاءُ فَيَأْتِي الْهَوَانُ، وَمَعَ الْمُتَوَاضِعِينَ حِكْمَةٌ» (أمثال 11: 2) و«اَلْخِصَامُ إِنَّمَا يَصِيرُ بِالْكِبْرِيَاءِ» (أمثال 13: 10) و«اَلرَّبُّ يَقْلَعُ بَيْتَ الْمُتَكَبِّرِينَ» (أمثال 15: 25) و«قَبْلَ الْكَسْرِ الْكِبْرِيَاءُ، وَقَبْلَ السُّقُوطِ تَشَامُخُ الرُّوحِ» (أمثال 16: 18) و«أَرَأَيْتَ رَجُلاً حَكِيماً فِي عَيْنَيْ نَفْسِهِ؟ الرَّجَاءُ بِالْجَاهِلِ أَكْثَرُ مِنَ الرَّجَاءِ بِهِ!» (أمثال 26: 12). و«كِبْرِيَاءُ الإِنْسَانِ تَضَعُهُ، وَالْوَضِيعُ الرُّوحِ يَنَالُ مَجْداً» (أمثال 29: 23).

2 – رفع النفس يضع النفس:

الذي يرفع نفسه يعطيها مكاناً ليس من حقها، لأن الرفعة لله وحده. وقد صوَّر الواعظ الشهير «بل برايت» الكبرياء بأنها وضع الذات على عرش القلب، بينما المسيح على الصليب. وصوَّر التواضع بأنه المسيح يتربَّع على عرش القلب، بينما الذات على الصليب. فإن الكبرياء تقطع صلة المتكبر بالله وتجلب عليه تأديبه «فَإِنَّ لِرَبِّ الْجُنُودِ يَوْماً عَلَى كُلِّ مُتَعَظِّمٍ وَعَالٍ، وَعَلَى كُلِّ مُرْتَفِعٍ فَيُوضَعُ» (إشعياء 2: 12). ويستجيب الله ما طلبه في سفر أيوب: «انْظُرْ إِلَى كُلِّ مُتَعَظِّمٍ وَذَلِّلْهُ، وَدُسِ الأَشْرَارَ فِي مَكَانِهِمِ» (أيوب 40: 12).

ومن مشكلات المتكبِّر أنه يحب الذين يرضونه ويمدحونه ويتوافقون معه، ويُعرِض عمَّن يعارضونه أو يقدمون له النصيحة، فالكبرياء غرور وسوء تقييم للنفس.. يعطي الربُّ الإنسانَ نجاحاً فينسى صاحب الفضل، ويعزو النجاح لذكائه وقدراته ومواهبه الطبيعية. ولكن عندما تأتي ساعة التجربة يدرك المتكبر من هو المعطي الجواد.

ورفع النفس أسرع طريق لضعة النفس والأسرة، فإذا تكبَّر أحد الزوجين على شريك الحياة وافتخر بماله أو جاهه، فإنه يُضعِف المحبة في شريكه أو يقتلها، ويفرِّق أبناءه عن طاعته وطلب مشورته، ويجلب النكد على أسرته.

كما أن رفع النفس يؤدي إلى انهيار الممالك وسقوط الحكام. قال فرعون: «مَنْ هُوَ الرَّبُّ حَتَّى أَسْمَعَ لِقَوْلِهِ فَأُطْلِقَ إِسْرَائِيلَ؟ لاَ أَعْرِفُ الرَّبَّ وَإِسْرَائِيلَ لاَ أُطْلِقُهُ» (خروج 5: 2) فحلَّت الكوارث بالمصريين، ومات بكر فرعون، وغرق جيشه فلم يبقَ منهم واحد (خروج 14).

وعندما انتصر بنو إسرائيل على أريحا ارتفعوا في نظر أنفسهم، ونتيجة لاستكبارهم ذهبوا ليهاجموا مدينة عاي وقالوا لقائدهم يشوع: «لاَ يَصْعَدْ كُلُّ الشَّعْبِ، بَلْ يَصْعَدْ نَحْوُ أَلْفَيْ رَجُلٍ أَوْ ثَلاَثَةُ آلاَفِ رَجُلٍ وَيَضْرِبُوا عَايَ. لاَ تُكَلِّفْ كُلَّ الشَّعْبِ إِلَى هُنَاكَ لأَنَّهُمْ (أهل عاي) قَلِيلُونَ». فصعد من الشعب إلى هناك نحو ثلاثة آلاف رجل، فهزمهم أهلُ عاي (يشوع 7: 3، 4). فاتَّضعوا لأنهم ارتفعوا في نظر أنفسهم!

وهذا ما جرى لنبوخذنصر الذي قال: «أَلَيْسَتْ هَذِهِ بَابِلَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي بَنَيْتُهَا لِبَيْتِ الْمُلْكِ بِقُوَّةِ اقْتِدَارِي وَلِجَلاَلِ مَجْدِي!». فأزال الرب المُلك عنه، وطُرد من بين الناس وأكل العشب مع الحيوان، حتى تعلَّم أن «العليَّ» متسلطٌ في مملكة الناس، يعطيها من يشاء. وأدرك قوة الرب وعظمته ورحمته، فقال: «أَنَا نَبُوخَذْنَصَّرُ رَفَعْتُ عَيْنَيَّ إِلَى السَّمَاءِ فَرَجَعَ إِلَيَّ عَقْلِي، وَبَارَكْتُ الْعَلِيَّ وَسَبَّحْتُ وَحَمَدْتُ الْحَيَّ إِلَى الأَبَدِ، الَّذِي سُلْطَانُهُ سُلْطَانٌ أَبَدِيٌّ وَمَلَكُوتُهُ إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ.. وَهُوَ يَفْعَلُ كَمَا يَشَاءُ فِي جُنْدِ السَّمَاءِ وَسُكَّانِ الأَرْضِ.. فَالآنَ أَنَا نَبُوخَذْنَصَّرُ أُسَبِّحُ وَأُعَظِّمُ وَأَحْمَدُ مَلِكَ السَّمَاءِ، الَّذِي كُلُّ أَعْمَالِهِ حَقٌّ وَطُرُقِهِ عَدْلٌ، وَمَنْ يَسْلُكُ بِالْكِبْرِيَاءِ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُذِلَّهُ» (دانيال 4: 28–37).

وقد هلك الملك هيرودس الذي في يوم معيَّن، لعله عيد ميلاده، لبس الحلة الملوكية وجلس على كرسي المُلك يخاطب الشعب. فصرخوا: «هَذَا صَوْتُ إِلَهٍ لاَ صَوْتُ إِنْسَانٍ!». فَفِي الْحَالِ ضَرَبَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ لأَنَّهُ لَمْ يُعْطِ الْمَجْدَ لِلَّهِ، فَصَارَ يَأْكُلُهُ الدُّودُ وَمَاتَ» (أعمال 12: 22، 23).

ثانياً – بركات وضع النفس

كل من يضع نفسه ويأخذ الموضع الأخير ينال الرفعة، ويُقال له: «يَا صَدِيقُ، ارْتَفِعْ إِلَى فَوْقُ.. لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَّضِعُ، وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ». وما أجمل الوصية: «أَنْ لاَ يَرْتَئِيَ (الإنسان) فَوْقَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَرْتَئِيَ، بَلْ يَرْتَئِيَ إِلَى التَّعَقُّلِ، كَمَا قَسَمَ اللهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِقْدَاراً مِنَ الإِيمَانِ» (رومية 12: 3). «فَإِنَّكَ حِينَئِذٍ تَتَلَذَّذُ بِالرَّبِّ، وَأُرَكِّبُكَ عَلَى مُرْتَفَعَاتِ الأَرْضِ» (إشعياء 58: 14).

1 – نصائح الوحي بوضع النفس:

يقدم الوحي المقدس لنا المسيح نموذجاً في التواضع الذي يرفع صاحبه، فقد دخل وهو الملك عالمنا مولوداً من عذراء فقيرة في مذود، إذ لم يكن له موضع في المنزل، وبذل نفسه لأجلنا على الصليب مسحوقاً لأجل معاصينا، فجعلنا نطيع قوله: «تَعَلَّمُوا مِنِّي، لأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ، فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُمْ» (متى 11: 29)، ونجتهد أن نطبِّق النصيحة الرسولية: «لَكُمْ مَحَبَّةٌ وَاحِدَةٌ بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، مُفْتَكِرِينَ شَيْئاً وَاحِداً، لاَ شَيْئاً بِتَحَزُّبٍ أَوْ بِعُجْبٍ، بَلْ بِتَوَاضُعٍ، حَاسِبِينَ بَعْضُكُمُ الْبَعْضَ أَفْضَلَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ. لاَ تَنْظُرُوا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَا هُوَ لِنَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَا هُوَ لآخَرِينَ أَيْضاً. فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هَذَا الْفِكْرُ الَّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضاً: الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً لِلَّهِ، لَكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذاً صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِراً فِي شِبْهِ النَّاسِ. وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ، مَوْتَ الصَّلِيبِ. لِذَلِكَ رَفَّعَهُ اللهُ أَيْضاً، وَأَعْطَاهُ اسْماً فَوْقَ كُلِّ اسْمٍ، لِكَيْ تَجْثُوَ بِاسْمِ يَسُوعَ كُلُّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ عَلَى الأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ الأَرْضِ، وَيَعْتَرِفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ رَبٌّ، لِمَجْدِ اللهِ الآبِ» (فيلبي 2: 2–11).

2 – ما يساعدنا على وضع النفس:

يساعدنا تقييمنا الواقعي لنفوسنا على التواضع، لأن الإنسان يميل إلى تقييم ذاته بأفضل مما هي عليه، وقد يكون في هذا التقييم الخاطئ مخلصاً أشد الإخلاص، كما قال بطرس للمسيح: «وَإِنْ شَكَّ فِيكَ الْجَمِيعُ فَأَنَا لاَ أَشُكُّ أَبَداً» مع أن المسيح سبق وقال: «كُلُّكُمْ تَشُكُّونَ فِيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنِّي أَضْرِبُ الرَّاعِيَ فَتَتَبَدَّدُ خِرَافُ الرَّعِيَّةِ» (متى 26: 31، 33). ومع أننا نجد الكثيرين يقيِّمون ذواتهم تقييماً عالياً لا يتفق مع الواقع، إلا أننا نجد البعض يُنقِص من قدر نفسه فيعذبه الإحساس بالدونية. وما أقل من يقيِّمون نفوسهم تقييماً صحيحاً.

ولا يمكن أن يكون الإنسان متواضعاً إلا إن كان عظيماً حقاً. فالكبرياء تعبير النفس التي تخشى عدم احترام الآخرين، والتي لا تقدِّر نفسها، فتريد أن تفرض نفسها على المحيطين بها. ولكن لو عرف المؤمن أنه ملح الأرض، وأنه نور للعالم، لامتلأت نفسه بالإحساس بالقيمة التي تعلِّمه التواضع. ولا يوجد من يستحق أن يكون عظيماً إلا الذي فتح قلبه للمسيح فأصبح هيكلاً للروح القدس، ينتمي للرب الذي دُعي اسمه عليه، فالرب دائماً يميِّز تقيَّه (مزمور 4: 3).

وأذكر ثلاثة عوامل مساعدة تعيننا لنتواضع:

(أ) نقيِّم أصلنا: يجيء البشر من خلفيات مختلفة، وينشأون في عائلات غنية أو فقيرة، متعلمة أو بسيطة، فهُم يختلفون في مراكزهم الاقتصادية والعلمية. لكنهم جميعاً يتشابهون في أنهم تراب، وإلى تراب يعودون، فقد جبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفساً حيَّة (تكوين 2: 7 و3: 19). وعند الموت «فَيَرْجِعُ التُّرَابُ إِلَى الأَرْضِ كَمَا كَانَ، وَتَرْجِعُ الرُّوحُ إِلَى اللَّهِ الَّذِي أَعْطَاهَا» (جامعة 12: 7). وقد قال المرنم: «لأَنَّهُ يَعْرِفُ جِبْلَتَنَا. يَذْكُرُ أَنَّنَا تُرَابٌ نَحْنُ. الإِنْسَانُ مِثْلُ الْعُشْبِ أَيَّامُهُ. كَزَهْرِ الْحَقْلِ كَذَلِكَ يُزْهِرُ. لأَنَّ رِيحاً تَعْبُرُ عَلَيْهِ فَلاَ يَكُونُ، وَلاَ يَعْرِفُهُ مَوْضِعُهُ بَعْدُ» (مزمور 103: 14-16). فلنذكر أصلنا لنتواضع!

(ب) نقيِّم ما عندنا: من عائلة وعلم ومواهب ومال، وكلها من عطايا الله لنا «لأَنَّهُ مَنْ يُمَيِّزُكَ؟ وَأَيُّ شَيْءٍ لَكَ لَمْ تَأْخُذْهُ؟ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَخَذْتَ، فَلِمَاذَا تَفْتَخِرُ كَأَنَّكَ لَمْ تَأْخُذْ؟» (1كورنثوس 4: 7). ولنسمع تقييم الرسول بولس للمؤمنين: «فَانْظُرُوا دَعْوَتَكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ، أَنْ لَيْسَ كَثِيرُونَ حُكَمَاءُ حَسَبَ الْجَسَدِ. لَيْسَ كَثِيرُونَ أَقْوِيَاءُ. لَيْسَ كَثِيرُونَ شُرَفَاءُ. بَلِ اخْتَارَ اللهُ جُهَّالَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الْحُكَمَاءَ، وَاخْتَارَ اللهُ ضُعَفَاءَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الأَقْوِيَاءَ.. لِكَيْ لاَ يَفْتَخِرَ كُلُّ ذِي جَسَدٍ أَمَامَهُ.. كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «مَنِ افْتَخَرَ فَلْيَفْتَخِرْ بِالرَّبِّ» (1كورنثوس 1: 26-31).

(ج) نقيِّم حالنا الروحي: يظن كثيرون أنهم يؤدون كل الطقوس الدينية الواجبة، مثل الشاب الغني الذي سأل المسيح: «أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، مَاذَا أَعْمَلُ لأَرِثَ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ؟». فأجابه: «أَنْتَ تَعْرِفُ الْوَصَايَا: لاَ تَزْنِ. لاَ تَقْتُلْ. لاَ تَسْرِقْ. لاَ تَشْهَدْ بِالزُّورِ. لاَ تَسْلِبْ. أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ». فقال: «يَا مُعَلِّمُ، هَذِهِ كُلُّهَا حَفِظْتُهَا مُنْذُ حَدَاثَتِي». ولكنه عند الامتحان اغتمَّ من أوامر المسيح ومضى حزيناً! (مرقس 10: 17-22). ويرجع سبب هذا الغم إلى تقييم النفس تقييماً روحياً خاطئاً.

فلنحترس من أن نقيس قامتنا الروحية بالتقييم المبالغ فيه لأنفسنا، أو بالبشر الناقصين مثلنا. ولنسعَ للنمو في النعمة «إِلَى أَنْ نَنْتَهِيَ جَمِيعُنَا إِلَى.. قِيَاسِ قَامَةِ مِلْءِ الْمَسِيحِ» (أفسس 4: 13) الذي قال: «مَتَى فَعَلْتُمْ كُلَّ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فَقُولُوا: إِنَّنَا عَبِيدٌ بَطَّالُونَ، لأَنَّنَا إِنَّمَا عَمِلْنَا مَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْنَا» (لوقا 17: 10). فعلى كل من يحتل مركزاً قيادياً في الكنيسة أن يقول إنه «عبدٌ بطال». وهكذا يجب أن يقول كل الأعضاء البارزين والمترددين على الكنائس، لأننا نعرف أنه «لأَنَّهُ لاَ فَرْقَ. إِذِ الْجَمِيعُ أَخْطَأُوا وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ اللهِ، مُتَبَرَّرِينَ مَجَّاناً بِنِعْمَتِهِ بِالْفِدَاءِ الَّذِي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ» (رومية 3: 22-24). ولنقُل دائماً إننا خطاة مخلَّصون بالنعمة.

سؤالان

1 – لماذا يقيِّم معظم الناس نفوسهم بأعظم من واقعهم؟

2 – اذكر ثلاثة أمور تساعد الإنسان أن يضع نفسه.

3 – ضرورة الغفران
مثل العبد الذي لم يرحم

«تَقَدَّمَ إِلَيْهِ بُطْرُسُ وَقَالَ: «يَا رَبُّ، كَمْ مَرَّةً يُخْطِئُ إِلَيَّ أَخِي وَأَنَا أَغْفِرُ لَهُ؟ هَلْ إِلَى سَبْعِ مَرَّات؟». 22قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لاَ أَقُولُ لَكَ إِلَى سَبْعِ مَرَّات، بَلْ إِلَى سَبْعِينَ مَرَّةً سَبْعَ مَرَّات. 23لِذلِكَ يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ إِنْسَاناً مَلِكاً أَرَادَ أَنْ يُحَاسِبَ عَبِيدَهُ. 24فَلَمَّا ابْتَدَأَ فِي الْمُحَاسَبَةِ قُدِّمَ إِلَيْهِ وَاحِدٌ مَدْيُونٌ بِعَشْرَةِ آلاَفِ وَزْنَة. 25وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُوفِي أَمَرَ سَيِّدُهُ أَنْ يُبَاعَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ وَأَوْلاَدُهُ وَكُلُّ مَا لَهُ وَيُوفَى الدَّيْنُ. 26فَخَرَّ الْعَبْدُ وَسَجَدَ لَهُ قَائِلاً: يَا سَيِّدُ تَمَهَّلْ عَلَيَّ فَأُوفِيَكَ الْجَمِيعَ. 27فَتَحَنَّنَ سَيِّدُ ذلِكَ الْعَبْدِ وَأَطْلَقَهُ وَتَرَكَ لَهُ الدَّيْنَ. 28وَلَمَّا خَرَجَ ذلِكَ الْعَبْدُ وَجَدَ وَاحِداً مِنَ الْعَبِيدِ رُفَقَائِهِ كَانَ مَدْيُوناً لَهُ بِمِئَةِ دِينَار، فَأَمْسَكَهُ وَأَخَذَ بِعُنُقِهِ قَائِلاً: أَوْفِنِي مَا لِي عَلَيْكَ. 29فَخَرَّ الْعَبْدُ رَفِيقُهُ عَلَى قَدَمَيْهِ وَطَلَبَ إِلَيْهِ قَائِلاً: تَمَهَّلْ عَلَيَّ فَأُوفِيَكَ الْجَمِيعَ. 30فَلَمْ يُرِدْ، بَلْ مَضَى وَأَلْقَاهُ فِي سِجْنٍ حَتَّى يُوفِيَ الدَّيْنَ. 31فَلَمَّا رَأَى الْعَبِيدُ رُفَقَاؤُهُ مَا كَانَ حَزِنُوا جِدّاً، وَأَتَوْا وَقَصُّوا عَلَى سَيِّدِهِمْ كُلَّ مَا جَرَى. 32فَدَعَاهُ حِينَئِذٍ سَيِّدُهُ وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْعَبْدُ الشِّرِّيرُ، كُلُّ ذلِكَ الدَّيْنِ تَرَكْتُهُ لَكَ لأَنَّكَ طَلَبْتَ إِلَيَّ. 33أَفَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنَّكَ أَنْتَ أَيْضاً تَرْحَمُ الْعَبْدَ رَفِيقَكَ كَمَا رَحِمْتُكَ أَنَا؟. 34وَغَضِبَ سَيِّدُهُ وَسَلَّمَهُ إِلَى الْمُعَذِّبِينَ حَتَّى يُوفِيَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ. 35فَهكَذَا أَبِي السَّمَاوِيُّ يَفْعَلُ بِكُمْ إِنْ لَمْ تَتْرُكُوا مِنْ قُلُوبِكُمْ كُلُّ وَاحِد لأَخِيهِ زَلاَتِهِ» (متى 18: 21–35).

مناسبة رواية المثل:

روى المسيح هذا المثَل بمناسبة سؤال أثاره بطرس بعد أن سمع تعليماً عميقاً عن الغفران، قال فيه المسيح: «إِنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ أَخُوكَ فَاذْهَبْ وَعَاتِبْهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ وَحْدَكُمَا. إِنْ سَمِعَ مِنْكَ فَقَدْ رَبِحْتَ أَخَاكَ. وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ فَخُذْ مَعَكَ أَيْضاً وَاحِداً أَوِ اثْنَيْنِ، لِكَيْ تَقُومَ كُلُّ كَلِمَة عَلَى فَمِ شَاهِدَيْنِ أَوْ ثَلاَثَة. وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُمْ فَقُلْ لِلْكَنِيسَةِ. وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ مِنَ الْكَنِيسَةِ فَلْيَكُنْ عِنْدَكَ كَالْوَثَنِيِّ وَالْعَشَّارِ» (متى 18: 15–17). فسأل بطرس: «يَا رَبُّ، كَمْ مَرَّةً يُخْطِئُ إِلَيَّ أَخِي وَأَنَا أَغْفِرُ لَهُ؟ هَلْ إِلَى سَبْعِ مَرَّات؟».

ولعل عدة أفكار كانت تجول في فكر بطرس وهو يثير السؤال، ربما كان أولها التعليم الذي سبق أن سمعه من المسيح: «إِنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ أَخُوكَ فَوَبِّخْهُ، وَإِنْ تَابَ فَاغْفِرْ لَهُ. وَإِنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ وَرَجَعَ إِلَيْكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ فِي الْيَوْمِ قَائِلاً: أَنَا تَائِبٌ، فَاغْفِرْ لَهُ» (لوقا 17: 3، 4) فسأل عن عدد مرات الغفران.. وربما كان يفكر في تعليم رجال الدين اليهود الذين قالوا إن الحد الأقصى لمرات الغفران هو ثلاث، اعتماداً على قول أليهو: «هُوَذَا كُلُّ هَذِهِ يَفْعَلُهَا اللهُ مَرَّتَيْنِ وَثَلاَثاً بِالإِنْسَانِ، لِيَرُدَّ نَفْسَهُ مِنَ الْحُفْرَةِ، لِيَسْتَنِيرَ بِنُورِ الأَحْيَاءِ» (أيوب 33: 29، 30). فضرب بطرس الثلاثة في اثنين وأضاف واحداً، جاعلاً الحدَّ الأقصى لعدد مرات الغفران سبعاً.. وربما كان يفكر في كلمات الرب على فم النبي عاموس: «مِنْ أَجْلِ ذُنُوبِ .. الثَّلاَثَةِ وَالأَرْبَعَةِ» وقد تكرر هذا التعبير ثماني مرات في الأصحاحين الأول والثاني من نبوَّة عاموس. فجمع بطرس الثلاثة والأربعة، جاعلاً الحدَّ الأقصى لعدد مرات الغفران سبعاً.. أو ربما كان بطرس متأثراً بأن السبعة عدد مقدس، فظنَّ الحدَّ الأقصى لعدد مرات الغفران سبعاً.

وكان جواب المسيح على تساؤل بطرس: «لاَ أَقُولُ لَكَ إِلَى سَبْعِ مَرَّات، بَلْ إِلَى سَبْعِينَ مَرَّةً سَبْعَ مَرَّات». ولم يقصد المسيح بهذه الإجابة تحديد رقم 490، بل قصد إطلاق الغفران بدون حدود كما أن الله يغفر بلا حدود،

لأن الذي يحاول أن يحصي أخطاء شخص حتى 490 مرة يناله التعب والملل، فيتوقف، ويحوِّل تفكيره من إحصاء السلبيات إلى الغفران والمسامحة. ثم روى المسيح هذا المثل لبطرس ولنا.

شخصيات المثل:

نلتقي في هذا المثل بثلاث شخصيات رئيسية: الأولى شخصية الملك الذي أقرض أحد وزرائه مبلغاً كبيراً جداً، لا بد أنه اتفق معه على استثماره ليعود عليه بالربح.. والشخصية الثانية هي شخصية الوزير الطموح الذي لا بد عمل دراسة جدوى لمشروع عظيم، وجد نفسه عاجزاً عن تدبير المال اللازم له، فطلب من الملك الذي أقرضه عشرة آلاف وزنة. ولكن مشروع الوزير لم ينجح، فخسر أموال الملك وعجز عن السداد، فسامحه الملك.. والشخصية الثالثة لرفيق الوزير الذي كان مديوناً له بدَيْنٍ بسيط عجز أيضاً عن الوفاء به، فغضب الوزير الدائن على رفيقه المدين، وأمر ببيعه هو وامرأته وأولاده وكل ما يمتلك ليسدد الدين الصغير!

ويقدم المثَل لنا أيضاً مجموعةً من الزملاء الذين كانوا يشاهدون هذه الأحداث، منذهلين من كرم الملك ورحمته مع الوزير المديون، وحزانى على قرار بيع الرفيق العاجز عن السداد، فرفعوا الأمر كله للملك، الذي قال قولته العظيمة: «أَيُّهَا الْعَبْدُ الشِّرِّيرُ، كُلُّ ذَلِكَ الدَّيْنِ تَرَكْتُهُ لَكَ لأَنَّكَ طَلَبْتَ إِلَيَّ. أَفَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنَّكَ أَنْتَ أَيْضاً تَرْحَمُ الْعَبْدَ رَفِيقَكَ كَمَا رَحِمْتُكَ أَنَا؟». ثم أمر بتوقيع العقاب على الوزير الذي لم يرحم.

ولنا في هذا المثل ثلاثة دروس:

أولاً – إفلاسنا الروحي

هذا ملكٌ عظيم أعطى الوزير مبلغاً، تظهر ضخامته لو عرفنا أن قيمة الضرائب السنوية التي تدفعها أقاليم اليهودية، وأدوم، والسامرة، والجليل، وبيرية، مجتمعةً معاً كانت 800 وزنة، أي أقل من عُشر دين الوزير. ولو تذكرنا أن كل الذهب المستخدم في عمل التابوت كان أقل من 30 وزنة (خروج 38: 24). أما ملكة سبا فقد قدمت هدية كبيرة لسليمان بلغت 120 وزنة (1ملوك 10: 10). واستأجر أمصيا ملك يهوذا من يوآش ملك إسرائيل مئة ألف جندي مدرَّب، وُصفوا بأنهم «جَبَّارُو بَأْسٍ» مقابل مئة وزنة فضة (2أيام 25: 6).

وتتضح عظمة الدَّين أيضاً من القول إنه إذا حمل الرجل 60 رطلاً من الذهب، فسنحتاج إلى 8600 رجلاً ليحملوا العشرة آلاف وزنة! بينما يحمل رجل واحد مئة دينار في جيبه، فالدينار أجر عامل في اليوم.

لقد كان الملك سخياً في عطائه، كريماً في معاملاته مع وزيره، فلم يمسك ماله عنه ولم يطلب منه ضماناً لأنه عبده الذي يثق فيه، فأعطاه الفرصة أن يستثمر ويربح لنفسه وعائلته، ويحقق منفعة لمن يعملون في مشروعه وللمجتمع الذي يعيش فيه. لكن الوزير لم ينجح، ولم يحقق وعوده للملك، وعجز عن الوفاء حتى بأصل الدين! فكان للملك أن يأمر بسجنه أو يسامحه. وسجد الرجل وطلب مهلة للسداد. ورأى الملك عجز وزيره، فرحمه وأطلقه حراً.

وقد روى المسيح هذا المثل ليعلمنا عظمة عطاء الله لنا، فهو «الإِلَهُ الْحَيّ، الَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَالْبَحْرَ وَكُلَّ مَا فِيهَا.. وَهُوَ يَفْعَلُ خَيْراً، يُعْطِينَا مِنَ السَّمَاءِ أَمْطَاراً وَأَزْمِنَةً مُثْمِرَةً، وَيَمْلأُ قُلُوبَنَا طَعَاماً وَسُرُوراً» (أعمال 14: 15، 17). هذا الإله الكريم جهَّز لأبوينا الأوَّلين قبل خلقهما جنة عدن، التي تفوق قيمتها عشرة آلاف وزنة، فقد أعطاهما كل شجر الجنة، ومنحهما سلطاناً مطلقاً على كل الحيوانات والطيور، ووهبهما حياة الراحة والسلام. ولم يمنع عنهما سوى شجرة واحدة. ولكنهما عصيا ربهما فصارا مديونين عريانين عاجزين عن إرضاء ربهما! وسقط آدم فسقطت ذريته، وطُردوا من الجنة بعضهم لبعضٍ عدو!

ومن منّا لم يؤتَ من ربِّه وزنات رائعة؟ لقد وهبنا جسداً ونفساً وروحاً، وعائلة تعتني بنا، ووفَّر لنا تعليماً، ووظيفة أو مهنة أو تجارة. ولو أننا حاولنا أن نحصي نعم الرب علينا لعجزنا، فهي أكثر مما نفتكر وأعظم من أن تُشترى بمال! لكن ما أصدق القول: «وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الأَرْضِ، وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرِ أَفْكَارِ قَلْبِهِ إِنَّمَا هُوَ شِرِّيرٌ كُلَّ يَوْمٍ» (تكوين 6: 5) فأمر بالطوفان، وقال بعده: «تَصَوُّرُ قَلْبِ الإِنْسَانِ شِرِّيرٌ مُنْذُ حَدَاثَتِهِ» (تكوين 8:21). وقال الحكيم سليمان في صلاته وهو يدشِّن الهيكل الأول: «لأَنَّهُ لَيْسَ إِنْسَانٌ لا يُخْطِئُ» (1ملوك 8: 46). وقال المرنم: «إِنْ كُنْتَ تُرَاقِبُ الآثَامَ يَا رَبُّ يَا سَيِّدُ، فَمَنْ يَقِفُ؟" (مزمور 130: 3). وقال الجامعة: «لأَنَّهُ لا إِنْسَانٌ صِدِّيقٌ فِي الأَرْضِ يَعْمَلُ صَلاحاً وَلا يُخْطِئُ» (جامعة 7: 20). وقال الرسول يوحنا: «إِنْ قُلْنَا إِنَّهُ لَيْسَ لَنَا خَطِيَّةٌ نُضِلُّ أَنْفُسَنَا وَلَيْسَ الْحَقُّ فِينَا" (1يوحنا 1: 8).

وكل من يكتشف في نفسه هذا الإفلاس الروحي، يجب أن يعترف بخطاياه تائباً مصلّياً «اللَّهُمَّ، ارْحَمْنِي أَنَا الْخَاطِي» (لوقا 18: 13)، ثم يكون رحيماً بالخطائين.

ثانياً – عظمة المراحم الإلهية

وقف الوزير أمام الملك مفلساً من المال، ذليلاً تملأه مشاعر الخزي بسبب فشله وعجزه، منتظراً وقوع العقاب. وفي خوف شديد استعطف الملك أن يمهله حتى يوفي الدين الكبير، ووعد أن يظل ملتزماً بسداده، مع أنه لو بيع هو وامرأته وأولاده وكل ما يملكه لما تمكَّن من الوفاء. كان يعلم أنه يستحق أن يُقال له ما قيل للملك بيلشاصر: «مَنَا مَنَا تَقِيلُ وَفَرْسِينُ. وَهَذَا تَفْسِيرُ الْكَلاَمِ. «مَنَا» أَحْصَى اللَّهُ مَلَكُوتَكَ وَأَنْهَاهُ. «تَقِيلُ» وُزِنْتَ بِالْمَوَازِينِ فَوُجِدْتَ نَاقِصاً. «فَرْسِ» قُسِمَتْ مَمْلَكَتُكَ وَأُعْطِيَتْ لِمَادِي وَفَارِسَ» (دانيال 5: 25، 26). ولكنه لجأ إلى مراحم الملك، وكأنه يقول: يا سيدي، إن ذنبي عظيم لكن إمهالك أعظم!

وقد ظهرت عظمة رحمة الملك، وتفوَّقت على القصاص، إذ تحنن على المديون، ولم يكتفِ بأن يعطيه مهلةً، بل منحه عفواً شاملاً! ويعلمنا هذا المثَل أننا كلنا أخطأنا وعوَّجنا المستقيم وارتكبنا الشر في عيني الله، فتضخَّمت ديوننا، وحقَّ علينا حكم الموت. وإذ لم يكن لنا ما نوفي به تنازل مالك نفوسنا وسيدنا وسامحنا، فيُقال لنا: «إِذْ كُنْتُمْ أَمْوَاتاً فِي الْخَطَايَا وَغُلْفِ جَسَدِكُمْ، أَحْيَاكُمْ مَعَهُ، مُسَامِحاً لَكُمْ بِجَمِيعِ الْخَطَايَا، إِذْ مَحَا الصَّكَّ الَّذِي عَلَيْنَا فِي الْفَرَائِضِ، الَّذِي كَانَ ضِدّاً لَنَا، وَقَدْ رَفَعَهُ مِنَ الْوَسَطِ مُسَمِّراً إِيَّاهُ بِالصَّلِيبِ» (كولوسي 2: 13، 14).. لقد «كُنَّا بِالطَّبِيعَةِ أَبْنَاءَ الْغَضَبِ كَالْبَاقِينَ أَيْضاً، اَللهُ الَّذِي هُوَ غَنِيٌّ فِي الرَّحْمَةِ، مِنْ أَجْلِ مَحَبَّتِهِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي أَحَبَّنَا بِهَا، وَنَحْنُ أَمْوَاتٌ بِالْخَطَايَا أَحْيَانَا مَعَ الْمَسِيحِ.. وَأَقَامَنَا مَعَهُ، وَأَجْلَسَنَا مَعَهُ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ.. لأَنَّكُمْ بِالنِّعْمَةِ مُخَلَّصُونَ، بِالإِيمَانِ، وَذَلِكَ لَيْسَ مِنْكُمْ. هُوَ عَطِيَّةُ اللهِ. لَيْسَ مِنْ أَعْمَالٍ كَيْلاَ يَفْتَخِرَ أَحَدٌ» (أفسس 2: 3–9). فيحقَّ أن نهتف مع المرنم: «مَا أَكْرَمَ رَحْمَتَكَ يَا اللهُ، فَبَنُو الْبَشَرِ فِي ظِلِّ جَنَاحَيْكَ يَحْتَمُونَ» (مزمور 36: 7).

لقد أظهر الرب لنا عظمة مراحمه، فإنه «رَحِيمٌ وَرَؤُوفٌ، طَوِيلُ الرُّوحِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ.. مِثْلُ ارْتِفَاعِ السَّمَاوَاتِ فَوْقَ الأَرْضِ قَوِيَتْ رَحْمَتُهُ عَلَى خَائِفِيهِ.. كَمَا يَتَرَأَّفُ الأَبُ عَلَى الْبَنِينَ يَتَرَأَّفُ الرَّبُّ عَلَى خَائِفِيهِ. لأَنَّهُ يَعْرِفُ جِبْلَتَنَا. يَذْكُرُ أَنَّنَا تُرَابٌ نَحْنُ» (مزمور 103: 8، 11، 13، 14). ورحمته بلا حدود، فقال المرنم له: «لأَنَّ رَحْمَتَكَ قَدْ عَظُمَتْ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ، وَإِلَى الْغَمَامِ حَقُّكَ.. رَحْمَتُكَ يَا رَبُّ قَدْ مَلأَتِ الأَرْضَ» (مزمور 108: 4، 119: 64). وقال النبي إرميا إنه لولا هذه الرحمة ما كانت لنا حياة، فإنه «مِنْ إِحْسَانَاتِ الرَّبِّ أَنَّنَا لَمْ نَفْنَ، لأَنَّ مَرَاحِمَهُ لا تَزُولُ» (مراثي 3: 22).

هذه الرحمة تشجعنا لنتوب، طاعةً لنداء الوحي: «مَزِّقُوا قُلُوبَكُمْ لاَ ثِيَابَكُمْ وَارْجِعُوا إِلَى الرَّبِّ إِلَهِكُمْ، لأَنَّهُ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ، بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الرَّأْفَةِ» (يوئيل 2: 13) فيغفر الخطايا فنقول له: «مَنْ هُوَ إِلَهٌ مِثْلُكَ، غَافِرٌ الإِثْمَ، وَصَافِحٌ عَنِ الذَّنْبِ.. لاَ يَحْفَظُ إِلَى الأَبَدِ غَضَبَهُ، فَإِنَّهُ يُسَرُّ بِالرَّأْفَةِ» (ميخا 7: 18). لقد كانت رحمة الله مستعدةً أن تعفو عن سدوم وعمورة لو وُجد فيها خمسون باراً (تكوين 18: 26)، وهي التي أشفقت على لوط، الذي لما توانى في الخروج من سدوم أمسك الملاكان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه «لِشَفَقَةِ الرَّبِّ عَلَيْهِ، وَأَخْرَجَاهُ وَوَضَعَاهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ» (تكوين 19: 16). وقد عرف عزرا هذه الرحمة فقال لله: «لأَنَّكَ قَدْ جَازَيْتَنَا يَا إِلَهَنَا أَقَلَّ مِنْ آثَامِنَا وَأَعْطَيْتَنَا نَجَاةً» (عزرا 9: 13) وقال نحميا عن شعبه: «أَبُوا الاسْتِمَاعَ وَلَمْ يَذْكُرُوا عَجَائِبَكَ الَّتِي صَنَعْتَ مَعَهُمْ وَصَلَّبُوا رِقَابَهُمْ.. وَلَكِنْ لأَجْلِ مَرَاحِمِكَ الْكَثِيرَةِ لَمْ تُفْنِهِمْ وَلَمْ تَتْرُكْهُمْ، لأَنَّكَ إِلَهٌ حَنَّانٌ وَرَحِيمٌ» (نحميا 9: 17، 31). إنها الرحمة التي تجعل خلاصنا ممكناً، لأن خلاصنا «لاَ بِأَعْمَالٍ فِي بِرٍّ عَمِلْنَاهَا نَحْنُ، بَلْ بِمُقْتَضَى رَحْمَتِهِ خَلَّصَنَا بِغَسْلِ الْمِيلاَدِ الثَّانِي وَتَجْدِيدِ الرُّوحِ الْقُدُسِ» (تيطس 3: 5).

وقد تبدَّت هذه الرحمة واضحة كالشمس في مجيء المسيح إلى أرضنا، حيث جال يصنع خيراً ويشفي جميع المتسلِّط عليهم إبليس (أعمال 10: 38) يشبع الجياع، ويشفي المرضى ويقيم الموتى، و«لأَنَّ الْمَسِيحَ إِذْ كُنَّا بَعْدُ ضُعَفَاءَ مَاتَ فِي الْوَقْتِ الْمُعَيَّنِ لأَجْلِ الْفُجَّارِ. فَإِنَّهُ بِالْجَهْدِ يَمُوتُ أَحَدٌ لأَجْلِ بَارٍّ. رُبَّمَا لأَجْلِ الصَّالِحِ يَجْسُرُ أَحَدٌ أَيْضاً أَنْ يَمُوتَ. وَلَكِنَّ اللهَ بَيَّنَ مَحَبَّتَهُ لَنَا لأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ مَاتَ الْمَسِيحُ لأَجْلِنَا» (رومية 5: 6-8). وعلى صليبه صلى لأجل صالبيه: «اغْفِرْ لَهُمْ يَا أَبَتَاهُ، لأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ» (لوقا 23: 34). فما أعظم وأروع محبته ورحمته!

ثالثاً – ضرورة الرحمة

يعلمنا هذا المثل أن غفران الله لنا يوجب علينا أن نغفر للآخرين. لقد سامح الملك وزيره ولم يعاقبه لأنه استرحمه، وكان يجب أن يسامح الوزير رفيقه المديون له كما سامحه الملك، ولكنه لم يفعل! واستاء الحاضرون من تصرف الوزير وحزنوا جداً وأبلغوه للملك، فغضب وسلَّم وزيره إلى المعذِّبين حتى يوفي كل ما كان له عليه! وعلَّق المسيح على المثل بقوله: «فَهَكَذَا أَبِي السَّمَاوِيُّ يَفْعَلُ بِكُمْ إِنْ لَمْ تَتْرُكُوا مِنْ قُلُوبِكُمْ كُلُّ وَاحِدٍ لأَخِيهِ زَلاَتِهِ».

وقد علَّمنا المسيح في الصلاة الربانية أن نرفع لله ستَّ طلبات، تقول الخامسة منها: «اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْضاً لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا» (متى 6: 12). وكان التعليق الوحيد الذي عقَّب به المسيح على هذه الصلاة هو قوله: «فَإِنَّهُ إِنْ غَفَرْتُمْ لِلنَّاسِ زَلاَتِهِمْ يَغْفِرْ لَكُمْ أَيْضاً أَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ، وَإِنْ لَمْ تَغْفِرُوا لِلنَّاسِ زَلاَتِهِمْ لاَ يَغْفِرْ لَكُمْ أَبُوكُمْ أَيْضاً زَلاَتِكُمْ» (متى 6: 14، 15). فهو يمنحنا رحمة وغفراناً كلما أتينا إليه تائبين معترفين بخطايانا، فإن لم نغفر للمسيئين إلينا يوقع علينا العقاب كما فعل الملك بوزيره.

كلنا بشر خطاؤون، تزلُّ أقدامنا وتعثر في الطريق، فلنسمع النصيحة: «أَيُّهَا الإِخْوَةُ، إِنِ انْسَبَقَ إِنْسَانٌ فَأُخِذَ فِي زَلَّةٍ مَا، فَأَصْلِحُوا أَنْتُمُ الرُّوحَانِيِّينَ مِثْلَ هَذَا بِرُوحِ الْوَدَاعَةِ، نَاظِراً إِلَى نَفْسِكَ لِئَلاَّ تُجَرَّبَ أَنْتَ أَيْضاً. احْمِلُوا بَعْضُكُمْ أَثْقَالَ بَعْضٍ وَهَكَذَا تَمِّمُوا نَامُوسَ الْمَسِيحِ. لأَنَّهُ إِنْ ظَنَّ أَحَدٌ أَنَّهُ شَيْءٌ وَهُوَ لَيْسَ شَيْئاً، فَإِنَّهُ يَغِشُّ نَفْسَهُ» (غلاطية 6: 1-3).

إن غفرنا للمسيئين إلينا نكون قد أطعنا المسيح الذي قال: «طُوبَى لِلرُّحَمَاءِ لأَنَّهُمْ يُرْحَمُونَ» (متى 5: 7)، و«هَذِهِ هِيَ وَصِيَّتِي أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ» (يوحنا 15: 12)، وعملنا بوصايا الوحي: «لاَ تَدَعِ الرَّحْمَةَ وَالْحَقَّ يَتْرُكَانِكَ. تَقَلَّدْهُمَا عَلَى عُنُقِكَ. اكْتُبْهُمَا عَلَى لَوْحِ قَلْبِكَ.. اَلرَّجُلُ الرَّحِيمُ يُحْسِنُ إِلَى نَفْسِهِ،

وَالْقَاسِي يُكَدِّرُ لَحْمَهُ» (أمثال 3: 3، 11: 17). «قَدْ أَخْبَرَكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا هُوَ صَالِحٌ وَمَاذَا يَطْلُبُهُ مِنْكَ الرَّبُّ، إِلاَّ أَنْ تَصْنَعَ الْحَقَّ، وَتُحِبَّ الرَّحْمَةَ، وَتَسْلُكَ مُتَوَاضِعاً مَعَ إِلَهِكَ» (ميخا 6: 8).. أما الذين لا يغفرون فإنهم «بِلاَ فَهْمٍ وَلاَ عَهْدٍ وَلاَ حُنُوٍّ وَلاَ رِضىً وَلاَ رَحْمَةٍ» (رومية 1: 31).

وجدير بنا أن نتعلم الغفران من سير رجال الله، فيوسف الصدّيق باعه إخوته عبداً، فغفر لهم وملأ أوعيتهم قمحاً، ودفع ثمنه لخزينة الفرعون، وردَّ لهم فضتهم (تكوين 42: 25) ثم عرَّفهم بنفسه وقال: «أَنَا يُوسُفُ أَخُوكُمُ الَّذِي بِعْتُمُوهُ إِلَى مِصْرَ. وَالآنَ لاَ تَتَأَسَّفُوا وَلاَ تَغْتَاظُوا لأَنَّكُمْ بِعْتُمُونِي إِلَى هُنَا، لأَنَّهُ لاسْتِبْقَاءِ حَيَاةٍ أَرْسَلَنِيَ اللهُ قُدَّامَكُمْ.. لِيَجْعَلَ لَكُمْ بَقِيَّةً فِي الأَرْضِ، وَلِيَسْتَبْقِيَ لَكُمْ نَجَاةً عَظِيمَةً. فَالآنَ لَيْسَ أَنْتُمْ أَرْسَلْتُمُونِي إِلَى هُنَا، بَلِ اللهُ. وَهُوَ قَدْ جَعَلَنِي أَباً لِفِرْعَوْنَ وَسَيِّداً لِكُلِّ بَيْتِهِ وَمُتَسَلِّطاً عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ» (تكوين 45: 4، 5، 7، 8). وعندما مات يعقوب أبوه قال إخوته بعضهم لبعض: «لَعَلَّ يُوسُفَ يَضْطَهِدُنَا وَيَرُدُّ عَلَيْنَا جَمِيعَ الشَّرِّ الَّذِي صَنَعْنَا بِهِ». فأبلغوه وصية أبيه القائلة: «اصْفَحْ عَنْ ذَنْبِ إِخْوَتِكَ وَخَطِيَّتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ صَنَعُوا بِكَ شَرّاً. فَالآنَ اصْفَحْ عَنْ ذَنْبِ عَبِيدِ إِلَهِ أَبِيكَ». فبكى يوسف وقال لهم: «لاَ تَخَافُوا. لأَنَّهُ هَلْ أَنَا مَكَانَ اللهِ؟ أَنْتُمْ قَصَدْتُمْ لِي شَرّاً، أَمَّا اللهُ فَقَصَدَ بِهِ (بالشر) خَيْراً، لِكَيْ يَفْعَلَ كَمَا الْيَوْمَ، لِيُحْيِيَ شَعْباً كَثِيراً. فَالآنَ لاَ تَخَافُوا. أَنَا أَعُولُكُمْ وَأَوْلاَدَكُمْ». فَعَزَّاهُمْ وَطَيَّبَ قُلُوبَهُمْ. (تكوين 50: 15–21).

ونرى في داود صاحب المزامير نموذجاً آخر للغفران. فقد سامح شاول الذي كان مصرّاً على قتله، مع أن شاول وقع في يده مرتين: الأولى في برية عين جدي، ولم يمسه داود بأذى، ولما طلب رجال داود منه وقتها أن يقتل شاول وبَّخهم بقوله: «حَاشَا لِي مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ أَنْ أَعْمَلَ هَذَا الأَمْرَ بِسَيِّدِي بِمَسِيحِ الرَّبِّ، فَأَمُدَّ يَدِي إِلَيْهِ لأَنَّهُ مَسِيحُ الرَّبِّ هُوَ» (1صموئيل 24: 6). وكانت المرة الثانية التي غفر فيها داود لشاول في برية زيف عندما قال داود لرجاله: «حَاشَا لِي مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ أَنْ أَمُدَّ يَدِي إِلَى مَسِيحِ الرَّبِّ» (1صموئيل 26: 11).

وفي حياة الرسول بولس مثال للغفران للإخوة الذين قصَّروا في حقِّه، فقال عنهم: «فِي احْتِجَاجِي الأَوَّلِ لَمْ يَحْضُرْ أَحَدٌ مَعِي، بَلِ الْجَمِيعُ تَرَكُونِي. لاَ يُحْسَبْ عَلَيْهِمْ. وَلَكِنَّ الرَّبَّ وَقَفَ مَعِي وَقَوَّانِي، لِكَيْ تُتَمَّ بِي الْكِرَازَةُ، وَيَسْمَعَ جَمِيعُ الأُمَمِ، فَأُنْقِذْتُ مِنْ فَمِ الأَسَدِ» (2تيموثاوس 4: 16، 17).

أيها المؤمن، أنت مثل زيتونة خضراء في بيت الله (مزمور 52: 8) والزيتون إن عصرته يعطيك زيتاً. وأنت صدِّيق كالنخلة الزاهية (مزمور 92: 12) والنخلة إن ضربتها بحجر أعطتك بلحاً. فكن كالزيتونة وكالنخلة. «فَإِنْ جَاعَ عَدُوُّكَ فَأَطْعِمْهُ، وَإِنْ عَطِشَ فَاسْقِهِ. لأَنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ هَذَا تَجْمَعْ جَمْرَ نَارٍ عَلَى رَأْسِهِ. لاَ يَغْلِبَنَّكَ الشَّرُّ، بَلِ اغْلِبِ الشَّرَّ بِالْخَيْرِ» (رومية 12: 20، 21).

إن كنت تشعر بمديونيتك لله فاجتهد أن تحيا حياة الغفران. لقد وهبتك محبة الله الكثير، فامنح غيرك كما منحك، لأنك إن لم تغفر فإنك «فِي مَا تَدِينُ غَيْرَكَ تَحْكُمُ عَلَى نَفْسِكَ» (رومية 2: 1).

سؤالان

1 – ما هي مناسبة رواية مثَل «العبد الذي لم يرحم»؟

2 – لماذا يجب أن نغفر لمن يسيء إلينا؟

4 – ضرورة الأمانة

(أ) الأمانة للنفس – مثل الغني الغبي لوقا 12: 13–21

(ب) الأمانة للرؤساء – مثل الوكيل الظالم لوقا 16: 1–13

(ج) الأمانة للمحتاجين – مثل الغني ولعازر لوقا 16: 19–31

4- ضرورة الأمانة

(أ) الأمانة للنفس

مثل الغني الغبي

13وَقَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنَ الْجَمْعِ: «يَا مُعَلِّمُ، قُلْ لأَخِي أَنْ يُقَاسِمَنِي الْمِيرَاثَ». 14فَقَالَ لَهُ: «يَا إِنْسَانُ، مَنْ أَقَامَنِي عَلَيْكُمَا قَاضِياً أَوْ مُقَسِّماً؟». 15وَقَالَ لَهُمُ: «انْظُرُوا وَتَحَفَّظُوا مِنَ الطَّمَعِ، فَإِنَّهُ مَتَى كَانَ لأَحَدٍ كَثِيرٌ فَلَيْسَتْ حَيَاتُهُ مِنْ أَمْوَالِهِ». 16وَضَرَبَ لَهُمْ مَثَلاً قَائِلاً: «إِنْسَانٌ غَنِيٌّ أَخْصَبَتْ كُورَتُهُ، 17فَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ قَائِلاً: مَاذَا أَعْمَلُ، لأَنْ لَيْسَ لِي مَوْضِعٌ أَجْمَعُ فِيهِ أَثْمَارِي؟ 18وَقَالَ: أَعْمَلُ هَذَا: أَهْدِمُ مَخَازِنِي وَأَبْنِي أَعْظَمَ، وَأَجْمَعُ هُنَاكَ جَمِيعَ غَلاَّتِي وَخَيْرَاتِي، 19وَأَقُولُ لِنَفْسِي: يَا نَفْسُ، لَكِ خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ مَوْضُوعَةٌ لِسِنِينَ كَثِيرَةٍ. اسْتَرِيحِي وَكُلِي وَاشْرَبِي وَافْرَحِي. 20فَقَالَ لَهُ اللهُ: يَا غَبِيُّ، هَذِهِ اللَّيْلَةَ تُطْلَبُ نَفْسُكَ مِنْكَ، فَهَذِهِ الَّتِي أَعْدَدْتَهَا لِمَنْ تَكُونُ؟ 21هَكَذَا الَّذِي يَكْنِزُ لِنَفْسِهِ وَلَيْسَ هُوَ غَنِيّاً لِلَّهِ» (لوقا 12: 13-21).

مناسبة رواية المثَل:

حدَّث المسيح تلاميذه عن عناية الرب بالبشر، الواضحة في أنه يُحصي حتى شعور رؤوسهم (لوقا 12: 7)، ثم أوضح أنهم يجب أن يقبلوا شهادة الروح القدس عن أنه «المسيا» (أي المخلِّص المنتظَر) حتى لا يجدِّفوا على الروح القدس، وهي الخطية التي لا تُغفر (لوقا 12: 10)، ثم طمأنهم بأن الروح القدس سيعلِّمهم ما يجب أن يقولوه لو ألقى الرؤساء القبض عليهم (لوقا 12: 12).

وقاطع أحد السامعين حديث المسيح بشكوى من أخيه الذي قال إنه ظلمه في تقسيم الميراث. والأغلب أن الشاكي كان الأخ الأصغر، وقد جاء يطلب الإنصاف من أخيه الأكبر. وكانت شريعة موسى تعطي الأخ الأكبر ضعف نصيب أخيه الأصغر، كما كلفت الأكبر بتوزيع الميراث (تثنية 21: 17).

ولم يذكر الشاكي أية براهين على ظلم أخيه له، كما لم يوضح مقدار الظلم الواقع عليه. وربما كانت شكواه تذمُّراً على شريعة موسى، فكان يطلب من المسيح تعليماً جديداً ينادي بالمساواة في توزيع الميراث. أو ربما كان يخشى المستقبل ويعتقد أن ميراثه سيكون سنداً له في شيخوخته.. ولا زال الناس يقلقون على احتياجاتهم المادية، مع أنّ حياة الإنسان ليست من أمواله، وقد قال المسيح: «لاَ تَهْتَمُّوا لِحَيَاتِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَبِمَا تَشْرَبُونَ.. نْظُرُوا إِلَى طُيُورِ السَّمَاءِ: إِنَّهَا لاَ تَزْرَعُ وَلاَ تَحْصُدُ وَلاَ تَجْمَعُ إِلَى مَخَازِنَ، وَأَبُوكُمُ السَّمَاوِيُّ يَقُوتُهَا. أَلَسْتُمْ أَنْتُمْ بِالْحَرِيِّ أَفْضَلَ مِنْهَا؟» (متى 6: 25، 26).

ورفض المسيح أن يجلس مجلس القضاء، لأنه إن فعل هذا فلا بد له أن يسمع الطرفين معاً، وأن يتحقق من صدق كل ما يرويه كلٌّ منهما. ولو أنه تدخَّل ليحل هذه الشكوى قضائياً سيظنّه السامعون مثل موسى الذي حاول أن ينصف بني شعبه (خروج 2: 14)، فيتبعونه باعتباره حاكماً أرضياً، مع أنه ليس قاضياً ولا مقسِّماً، لأن مملكته ليست من هذا العالم (يوحنا 18: 36).

وكطبيب للنفوس ومخلِّص لها من الخطية عالج المسيح مشكلة الشاكي من جذورها، فقد كان إلحاح الماديات قوياً عليه حتى لم يُلقِ بالاً لسماع التعاليم الروحية، ويبدو أن هموم هذا العالم وغرور الغنى وشهوات سائر الأشياء خنقت الكلمة فيه فصارت بلا ثمر (مرقس 4: 19). فحوَّل المسيح السؤال الخاص بالماديات إلى درس روحي، لأن الشاكي تمسَّك بالمهم ونسي الأهم، وقدَّم له الحل الأمثل لمشكلته، فقد كانت العلَّة كامنة في

قلبه قبل أن تكون في أخيه، فنبَّهه المسيح إلى ضرورة إصلاح القلب بتخليصه من الطمع، وأوضح له أن حياة الإنسان ليست من أمواله، وشرح له هذا كله في مثَل الغني الغبي.

أولاً – إنسان غني

في هذا المثل لم تكن مشكلة الغني في غناه، وإلا كان المسيح يذكر هذا. والواضح أنه إنسان شريف لم يغتنِ بالظلم ولا السرقة ولا الاستغلال، كما أنه كان حصيفاً ذكياً في أمور دنياه، لديه نظام إداري ناجح، وقد اغتنى بحُسن استغلال أرضه الخصبة في الزراعة فأثمرت غلات وخيرات وفيرة. ودبر وخطط لمستقبله وحياته الأرضية بطموح.

ولا غبار عليه في هذا، فهناك فرق بين الطموح والطمع، فالطموح وبذل الجهد للرقي والرفعة والتقدم واجب، فقد جاء المسيح ليعطينا الحياة الفضلى (يوحنا 10: 10)، وقال الحكيم: «أَرَأَيْتَ رَجُلاً مُجْتَهِداً فِي عَمَلِهِ؟ أَمَامَ الْمُلُوكِ يَقِفُ. لاَ يَقِفُ أَمَامَ الرَّعَاعِ!» (أمثال 22: 29)، وقال: «كُلُّ مَا تَجِدُهُ يَدُكَ لِتَفْعَلَهُ فَافْعَلْهُ بِقُوَّتِكَ» (جامعة 9: 10).. ولكن الطمع خطية، لأن الطماع قد يشتهي ما عند الغير أو يشتهي المزيد من المال والممتلكات. «مَنْ يُحِبُّ الْفِضَّةَ لاَ يَشْبَعُ مِنَ الْفِضَّةِ، وَمَنْ يُحِبُّ الثَّرْوَةَ لاَ يَشْبَعُ مِنْ دَخْلٍ» (جامعة 5: 10). ولهذا قال: «لاَ تَتْعَبْ لِكَيْ تَصِيرَ غَنِيّاً. كُفَّ عَنْ فِطْنَتِكَ. هَلْ تُطَيِّرُ عَيْنَيْكَ نَحْوَهُ (الغِنى) وَلَيْسَ هُوَ؟ لأَنَّهُ إِنَّمَا يَصْنَعُ لِنَفْسِهِ أَجْنِحَةً. كَالنَّسْرِ يَطِيرُ نَحْوَ السَّمَاءِ» (أمثال 23: 4، 5).

وهناك فرق بين المال وحب المال، فالمال خادم صالح لكنه سيد شرير، وحياة الإنسان ليست من أمواله. المال في ذاته صالح، ولكن الصواب أو الخطأ هو في استخدامه، فيمكن أن يكون مصدر بركة للمعطي وللآخذ، لو أننا خدمنا به الله والناس. وكم في الأغنياء من صالحين حكماء، مثل إبراهيم الخليل الذي قال له الله: «فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً، وَأُبَارِكَكَ، وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً» (تكوين 12: 2).. ومثل إسحاق الذي قيل عنه: «وَزَرَعَ إِسْحَاقُ فِي تِلْكَ الأَرْضِ فَأَصَابَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ مِئَةَ ضِعْفٍ، وَبَارَكَهُ الرَّبُّ» (تكوين 26: 12).. ومثل يعقوب أب الأسباط الذي أكرمه الله فقال: «صَغِيرٌ أَنَا عَنْ جَمِيعِ أَلْطَافِكَ وَجَمِيعِ الأَمَانَةِ الَّتِي صَنَعْتَ إِلَى عَبْدِكَ. فَإِنِّي بِعَصَايَ عَبَرْتُ هَذَا الأُرْدُنَّ وَالآنَ قَدْ صِرْتُ جَيْشَيْنِ» (تكوين 32: 10).

أما المشكلة فهي في «محبة المال» لأنها «أَصْلٌ لِكُلِّ الشُّرُورِ، الَّذِي إِذِ ابْتَغَاهُ قَوْمٌ ضَلُّوا عَنِ الإِيمَانِ، وَطَعَنُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَوْجَاعٍ كَثِيرَةٍ» (1تيموثاوس 6: 10). فمحبة المال تصرف القلب عن محبة الله، إذ يصبح المال إلهاً لمن يحبه، وقد قال المسيح: «لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ، لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الآخَرَ، أَوْ يُلاَزِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الآخَرَ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللَّهَ وَالْمَالَ» (متى 6: 24). وتقود محبة المال إلى الطمع في المزيد منه.

ثانياً – إنسان غبي

رأى الغني نفسه في هذا المثل ذكياً، لكن المسيح دعاه «غبياً» لأن ذكاءه انحصر في التفكير في حياته الحاضرة فحسب، مع أن كل إنسان مجرد نفخة (مزمور 39: 5)، ولأنه انشغل بقوت الجسد فقط، مع أن المسيح يقول: «اِعْمَلُوا لاَ لِلطَّعَامِ الْبَائِدِ بَلْ لِلطَّعَامِ الْبَاقِي لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ» (يوحنا 6: 27).

والأغنياء الأغبياء كثيرون، لأنهم يحبون المال ويضعونه قبل المبادئ، فيربحونه بالغش، وينفقونه في الحرام أو بالإسراف، مع أنهم يرون الناس من حولهم جياعاً، أو أنهم يحتفظون به في خزائنهم يتعبَّدون له.. من هؤلاء الأغبياء «بلعام» الذي طمع في الأجر الكبير بالرغم من العصيان، فوُصف بأنه «أَحَبَّ أُجْرَةَ الإِثْمِ»

(عدد 22–24 و2بطرس 2: 15).. ومنهم «عخان» الذي خان وسرق وأخذ من الحرام فجلب الهزيمة على شعبه (يشوع 7: 1).. ومنهم جيحزي الذي طلب ثمناً للخدمة المجانية التي قدَّمها النبي أليشع، وكذب على النبي وعلى نعمان السرياني، فضربه الله بالبرص (2ملوك 5: 25–27).. ومنهم يهوذا الإسخريوطي الذي باع سيده بثلاثين قطعة من الفضة (متى 26: 14، 15).. ومنهم حنانيا وسفيرة اللذان خسرا حياتيهما بسبب طمعهما في الشهرة وفي المال في وقت واحد (أعمال 5: 1–11).

ولا زال الناس يضعون المهم قبل الأهم، فيكبِّرون قيمة الماديات ويستهينون بالروحيات، ويحتاجون إلى طاعة القول: «أَوْصِ الأَغْنِيَاءَ فِي الدَّهْرِ الْحَاضِرِ أَنْ لاَ يَسْتَكْبِرُوا، وَلاَ يُلْقُوا رَجَاءهُمْ عَلَى غَيْرِ يَقِينِيَّةِ الْغِنَى (أي الغنى الزائل)، بَلْ عَلَى اللهِ الْحَيِّ الَّذِي يَمْنَحُنَا كُلَّ شَيْءٍ بِغِنًى لِلتَّمَتُّعِ. وَأَنْ يَصْنَعُوا صَلاَحاً، وَأَنْ يَكُونُوا أَغْنِيَاءَ فِي أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، وَأَنْ يَكُونُوا أَسْخِيَاءَ فِي الْعَطَاءِ، كُرَمَاءَ فِي التَّوْزِيعِ، مُدَّخِرِينَ لأَنْفُسِهِمْ أَسَاساً حَسَناً لِلْمُسْتَقْبَلِ، لِكَيْ يُمْسِكُوا بِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ» (1تيموثاوس 6: 17–19).

فلماذا دعا المسيح هذا الغني «غبياً»؟

1 – لأنه تغافل الله مصدر ثروته:

لم يذكر الله ولم يشكره، واعتبر المحاصيل التي منحها الله له «أثماره» هو. كان يبذر البذار الذي يرويه مطر السماء فينمو، بينما ينام هو ثم يصحو ولا يعرف كيف حدث النمو! ولكنه لم يُرجِع الفضل لصاحب الفضل، مع أن كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق، نازلة من عند أبي الأنوار (يعقوب 1: 17) «الإِلَهُ الَّذِي خَلَقَ الْعَالَمَ وَكُلَّ مَا فِيهِ، هَذَا إِذْ هُوَ رَبُّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ.. هُوَ يُعْطِي الْجَمِيعَ حَيَاةً وَنَفْساً وَكُلَّ شَيْءٍ» (أعمال 17: 24، 25).

2 – لأنه أساء تقدير قيمة نفسه الخالدة:

في غمرة انشغاله بالحياة الحاضرة نسي الحياة الآخرة، فوقف فقيراً أمام العرش الإلهي. كان كل تركيزه على الماديات، وفي غمرة انشغاله بأرضه التي أخصبت نسي روحه التي أجدبت. لم يلتفت إلا إلى مسراته من أكل وشرب وراحة، وجعل نفسه مركز الكون، فقال: «أَثْمَارِي.. مَخَازِنِي.. أَبْنِي.. أَجْمَعُ.. غَلاَتِي.. خَيْرَاتِي.. أَقُولُ لِنَفْسِي.. اسْتَرِيحِي، وَكُلِي، وَاشْرَبِي، وَافْرَحِي». لئن كان للفقر ضحايا، فإن للغنى ضحايا أكثر. لقد أخطأ لأنه لم يهتم بأمور حياته الأبدية الباقية، ونسي أن حياته الأرضية فانية. فكَّر طويلاً في حاجاته الجسدية ونسي احتياجاته الروحية، فكانت مخازنه موضع اهتمامه وقبلة صلاته وغاية مراده، وظن ثروته مصدر سعادته ورفاهيته، فناجى نفسه وقال: «مَاذَا أَعْمَلُ؟.. أَهْدِمُ مَخَازِنِي، وَأَبْنِي أَعْظَمَ مِنْهَا».

ويمكن أن يُوجَّه لهذا الغني الغبي اللوم الذي وجَّهه المسيح لملاك كنيسة لاودكية: «لأَنَّكَ تَقُولُ: إِنِّي أَنَا غَنِيٌّ وَقَدِ اسْتَغْنَيْتُ، وَلاَ حَاجَةَ لِي إِلَى شَيْءٍ، وَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ أَنْتَ الشَّقِيُّ وَالْبَائِسُ وَفَقِيرٌ وَأَعْمَى وَعُرْيَانٌ» (رؤيا 3: 17). فقد قيَّم نفسه بقوله: «يَا نَفْسُ، لَكِ خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ مَوْضُوعَةٌ لِسِنِينَ كَثِيرَةٍ. اسْتَرِيحِي وَكُلِي وَاشْرَبِي وَافْرَحِي». لكن الله قيَّمه بالقول: «يَا غَبِيُّ، هَذِهِ اللَّيْلَةَ تُطْلَبُ نَفْسُكَ مِنْكَ، فَهَذِهِ الَّتِي أَعْدَدْتَهَا لِمَنْ تَكُونُ؟»

ظن ذلك الغني أن الماديات تغنيه، فلم يفكر في إغناء نفسه الخالدة. وقدَّر قيمته بما كسبه من مال، فباع نفسه للغنى، بينما قيمة نفسه الحقيقية هي أن يكون غنياً لله، يحيا له هنا، يمارس الفضائل، فينعم بالخلود هناك. فإنه «لَيْسَ بِالْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا الإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ مَا يَخْرُجُ مِنْ فَمِ الرَّبِّ يَحْيَا الإِنْسَانُ» (تثنية 8: 3). و«إِنْ زَادَ الْغِنَى فَلاَ تَضَعُوا عَلَيْهِ قَلْباً» (مزمور 62: 10) «لأَنَّهُ مَاذَا يَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟ أَوْ مَاذَا يُعْطِي الإِنْسَانُ فِدَاءً عَنْ نَفْسِهِ؟» (متى 16: 26).

3 – لأنه أساء مكان الاحتفاظ بثروته:

قال: «أَهْدِمُ مَخَازِنِي وَأَبْنِي أَعْظَمَ» فكان كنزه في مخازنه الحجرية. عندما مات تساءل الناس: كم ترك؟ ولم يتساءلوا كم أخذ معه، ولكن السماء قالت: لقد ترك كل شيء، لأنه لم يشارك غيره في ما منحه الله له. صدَق أيوب، أعظم كل بني المشرق في زمانه وهو يقول: «عُرْيَاناً خَرَجْتُ مِنْ بَطْنِ أُمِّي، وَعُرْيَاناً أَعُودُ إِلَى هُنَاكَ» (أيوب 1: 21). أما الغني الغبي ففي غمرة انشغاله بمخازنه نسي الدعوة الحكيمة «لاَ تَكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزاً عَلَى الأَرْضِ حَيْثُ يُفْسِدُ السُّوسُ وَالصَّدَأُ، وَحَيْثُ يَنْقُبُ السَّارِقُونَ وَيَسْرِقُونَ. بَلِ اكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزاً فِي السَّمَاءِ، حَيْثُ لاَ يُفْسِدُ سُوسٌ وَلاَ صَدَأٌ، وَحَيْثُ لاَ يَنْقُبُ سَارِقُونَ وَلاَ يَسْرِقُونَ، لأَنَّهُ حَيْثُ يَكُونُ كَنْزُكَ هُنَاكَ يَكُونُ قَلْبُكَ أَيْضاً» (متّى 6: 19-21).

قال القديس أمبروز: «مخازنك الحقيقية هي حضن المحتاجين، وبيوت الأرامل، وأفواه الأيتام والصغار». كان عند الغني أكثر مما يحتاج إليه، فلم يفكر إلا في نفسه. قال الحكيم: «كَرِهْتُ كُلَّ تَعَبِي الَّذِي تَعِبْتُ فِيهِ تَحْتَ الشَّمْسِ حَيْثُ أَتْرُكُهُ لِلإِنْسَانِ الَّذِي يَكُونُ بَعْدِي. وَمَنْ يَعْلَمُ هَلْ يَكُونُ حَكِيماً أَوْ جَاهِلاً وَيَتَوَلَّى عَلَى كُلِّ تَعَبِي الَّذِي تَعِبْتُ فِيهِ وَأَظْهَرْتُ فِيهِ حِكْمَتِي تَحْتَ الشَّمْسِ؟» (جامعة 2: 18، 19).

لم يحسب هذا الغني حساب عشوره، فلم يفكر في حقوق الرب عليه، مع أنه قال: «هَاتُوا جَمِيعَ الْعُشُورِ إِلَى الْخَزْنَةِ لِيَكُونَ فِي بَيْتِي طَعَامٌ، وَجَرِّبُونِي بِهَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ، إِنْ كُنْتُ لاَ أَفْتَحُ لَكُمْ كُوى السَّمَاوَاتِ وَأُفِيضُ عَلَيْكُمْ بَرَكَةً حَتَّى لاَ تُوسَعَ. وَأَنْتَهِرُ مِنْ أَجْلِكُمْ الآكِلَ فَلاَ يُفْسِدُ لَكُمْ ثَمَرَ الأَرْضِ، وَلاَ يُعْقَرُ لَكُمُ الْكَرْمُ فِي الْحَقْلِ، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ» (ملاخي 3: 10، 11). نسي الفقراء والجائعين ولم يقدم لهم من ماله، مع أن «مَنْ كَانَ لَهُ مَعِيشَةُ الْعَالَمِ، وَنَظَرَ أَخَاهُ مُحْتَاجاً، وَأَغْلَقَ أَحْشَاءَهُ عَنْهُ، فَكَيْفَ تَثْبُتُ مَحَبَّةُ اللهِ فِيهِ؟» (1يوحنا 3: 17).

4 – لأنه أساء تقدير مقدار سنوات عمره:

كان قصير نظر يظن حياته ممتدَّة بلا نهاية، فقال لنفسه: «يَا نَفْسُ، لَكِ خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ مَوْضُوعَةٌ لِسِنِينَ كَثِيرَةٍ» ونسي قول الحكيم: «لاَ تَفْتَخِرْ بِالْغَدِ، لأَنَّكَ لاَ تَعْلَمُ مَاذَا يَلِدُهُ يَوْمٌ» (أمثال 27: 1). ظن أنه سيعيش سنين كثيرة مع أنه لم يبقَ له إلا يوم واحد! لقد أغواه الشيطان كما أغوى أبوينا الأولين بقوله لهما: «لَنْ تَمُوتَا!».

حذرنا الرسول يعقوب بالقول: «هَلُمَّ الآنَ أَيُّهَا الْقَائِلُونَ: «نَذْهَبُ الْيَوْمَ أَوْ غَداً إِلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ أَوْ تِلْكَ، وَهُنَاكَ نَصْرِفُ سَنَةً وَاحِدَةً وَنَتَّجِرُ وَنَرْبَحُ». أَنْتُمُ الَّذِينَ لاَ تَعْرِفُونَ أَمْرَ الْغَدِ! لأَنَّهُ مَا هِيَ حَيَاتُكُمْ؟ إِنَّهَا بُخَارٌ، يَظْهَرُ قَلِيلاً ثُمَّ يَضْمَحِلُّ» (يعقوب 4: 13، 14). «إِنَّمَا كَخَيَالٍ يَتَمَشَّى الإِنْسَانُ. إِنَّمَا بَاطِلاً يَضِجُّونَ. يَذْخَرُ ذَخَائِرَ وَلاَ يَدْرِي مَنْ يَضُمُّهَا» (مزمور 39: 6).

نحن نكره التفكير في الموت مع أنه نهاية كل حي، لكننا يجب أن نكون مستعدين له، بأن نكون أغنياء لله، أمناء لأنفسنا الغالية التي اشتراها المسيح بدمه.

سؤالان

1 – لماذا تظن رفع الأخ الشاكي شكواه للمسيح بخصوص الميراث؟ اذكر احتمالين.

2 – ما هو الحل الذي قدمه المسيح للأخ الشاكي؟

4- ضرورة الأمانة

(ب) الأمانة للرؤساء

مثل الوكيل الظالم

1وَقَالَ أَيْضاً لِتلاَمِيذِهِ: «كَانَ إِنْسَانٌ غَنِيٌّ لَهُ وَكِيلٌ، فَوُشِيَ بِهِ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ يُبَذِّرُ أَمْوَالَهُ، 2فَدَعَاهُ وَقَالَ لَهُ: مَا هَذَا الَّذِي أَسْمَعُ عَنْكَ؟ أَعْطِ حِسَابَ وَكَالَتِكَ، لأَنَّكَ لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَكُونَ وَكِيلاً بَعْدُ. 3فَقَالَ الْوَكِيلُ فِي نَفْسِهِ: مَاذَا أَفْعَلُ؟ لأَنَّ سَيِّدِي يَأْخُذُ مِنِّي الْوَكَالَةَ. لَسْتُ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْقُبَ، وَأَسْتَحِي أَنْ أَسْتَعْطِيَ. 4قَدْ عَلِمْتُ مَاذَا أَفْعَلُ حَتَّى إِذَا عُزِلْتُ عَنِ الْوَكَالَةِ يَقْبَلُونِي فِي بُيُوتِهِمْ. 5فَدَعَا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ مَدْيُونِي سَيِّدِهِ، وَقَالَ لِلأَوَّلِ: كَمْ عَلَيْكَ لِسَيِّدِي؟ 6فَقَالَ: مِئَةُ بَثٍّ زَيْت. فَقَالَ لَهُ: خُذْ صَكَّكَ وَاجْلِسْ عَاجِلاً وَاكْتُبْ خَمْسِينَ. 7ثُمَّ قَالَ لآخَرَ: وَأَنْتَ كَمْ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: مِئَةُ كُرِّ قَمْحٍ. فَقَالَ لَهُ: خُذْ صَكَّكَ وَاكْتُبْ ثَمَانِينَ. 8فَمَدَحَ السَّيِّدُ وَكِيلَ الظُّلْمِ إِذْ بِحِكْمَةٍ فَعَلَ، لأَنَّ أَبْنَاءَ هَذَا الدَّهْرِ أَحْكَمُ مِنْ أَبْنَاءِ النُّورِ فِي جِيلِهِمْ. 9وَأَنَا أَقُولُ لَكُمُ: اصْنَعُوا لَكُمْ أَصْدِقَاءَ بِمَالِ الظُّلْمِ، حَتَّى إِذَا فَنِيتُمْ يَقْبَلُونَكُمْ فِي الْمَظَالِّ الأَبَدِيَّةِ. 10اَلأَمِينُ فِي الْقَلِيلِ أَمِينٌ أَيْضاً فِي الْكَثِيرِ، وَالظَّالِمُ فِي الْقَلِيلِ ظَالِمٌ أَيْضاً فِي الْكَثِيرِ. 11فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا أُمَنَاءَ فِي مَالِ الظُّلْمِ، فَمَنْ يَأْتَمِنُكُمْ عَلَى الْحَقِّ؟ 12وَإِنْ لَمْ تَكُونُوا أُمَنَاءَ فِي مَا هُوَ لِلْغَيْرِ، فَمَنْ يُعْطِيكُمْ مَا هُوَ لَكُمْ؟ 13لاَ يَقْدِرُ خَادِمٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ، لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الآخَرَ، أَوْ يُلاَزِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الآخَرَ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللهَ وَالْمَالَ» (لوقا 16: 1-13).

في هذا المثل نجد شخصيتين رئيسيتين:

1 - الرجل الغني:

صاحب الممتلكات الواسعة، الذي ترك قريته إلى المدينة، ووكَّل أمر إدارة أمواله إلى وكيل له، كان يثق فيه. وسمع أن وكيله «يُبَذِّرُ أَمْوَالَهُ» وهو نفس التعبير الذي وُصف به «الابن الضال» أنه «بَذَّرَ مَالَهُ» (لوقا 15: 13). فطلب الغني من وكيله أن يقدم له بياناً بالمبالغ التي يداين بها المزارعين، مصدّقاً عليه من الوكيل.. فأنقص الوكيل ديون المديونين. ولما عرف الغني أن الوكيل خدعه بهذه الطريقة الذكية مدح الوكيل، لا على أخلاقه، فهو قد خانه فدعاه «وكيل الظلم»، لكنه مدح ذكاءه وحكمته. ونحن أحياناً نمدح ذكاء شحاذ خدعنا بقصة كاذبة، ولو أننا ندين خداعه، ونتساءل: لماذا لا يستخدم ذكاءه الذي حبك به قصةً كاذبة ليربح مالاً حلالاً؟

2 - الوكيل الظالم:

الذي كان يبذِّر المال، فطلب منه الغني أن يسلِّم عهدته. وكان يجب أن يعتذر عن خيانته ويردَّ المسلوب، لكنه لم يفعل لأنه كان يطلب الأفضل لمستقبله المادي مما في العالم من مسكن ومأكل وملبس. وكان واقعياً في تقييم قدراته، فهو يعلم أنه عاجزٌ جسدياً عن أن ينقب، وعاجز اجتماعياً عن أن يستعطي ويتسوَّل. وأعمل فكره في ماذا يعمل بعد أن يُطرد؟ إلى أن وجد الحل الظالم، الذي هداه إليه تفكيره الذكي الشرير، فقرر أن يزوِّر حسابات موكِّله. وكان التزوير سهلاً لأن الأرقام وقتها كانت تُكتب بالحروف الأبجدية، ولم يكن هناك فرق كبير يميِّز الحروف الدالة على العشرات من الحروف الدالة على المئات.. فاستدعى المزارعين وأنقص قيمة ديونهم حتى يكرموه فيما بعد. كان على المديون الأول مئة بث زيت (البث مكيال للسوائل يعادل نحو تسعة جالونات، وهو نتاج 146 شجرة زيتون)، فطلب منه أن يجعلها نصف الكمية. وكان على المديون الثاني مئة كُرّ قمح (الكُر مكيال للسوائل وللحبوب، ويساوي عشرة أبثاث)، فسامحه بخُمس الدين.

3 – ونجد في المثل مجموعة المزارعين المديونين، الذين رحَّبوا بتزوير الوكيل:

ولعلهم التمسوا العذر لأنفسهم في ذلك بأن حكموا أن الغني ظالم يتقاضى منهم أكثر مما يجب، فاعتبروا تغيير صكوك ديونهم إقراراً للعدالة يرد لهم بعض حقوقهم. ولعلهم شكروا الوكيل الظالم لأنه أنصفهم.

ويواجهنا هذا المثل بمشكلة هي أن المسيح يمدح المخادع الغشاش، ويدعو المؤمنين ليقتدوا به ويسيروا في خطوات غشِّه. والحقيقة هي أن المسيح لم يمدح كل تصرفات الوكيل الظالم، بل مدح حكمته فقط. فالمثل يقول: «فَمَدَحَ السَّيِّدُ وَكِيلَ الظُّلْمِ إِذْ بِحِكْمَةٍ فَعَلَ» لأن هذا الرجل استعد لما يأتي عليه في المستقبل قبل أن يُطرد من وكالته. لم يمدح المسيح غش الوكيل الظالم ولكنه مدح ذكاءه، لأنه استخدم فرصةً في متناول يده لتفيده في المستقبل الذي يجهله.

وتنحلُّ المشكلة لما ندرك أن المثَل عادةً يعلّمنا درساً رئيسياً واحداً، ويعطينا فكرة نحتذيها أو نتَّقيها، كما في مثل القاضي الظالم الذي استجاب لصراخ الأرملة المظلومة حتى لا تقمعه! (لوقا 18: 1–8). وهناك نقطة هامة جداً في تفسير الأمثال، هي أن هناك نقطة تشبيه محددة، لا نخرج عنها إلى التعميم. فمثلاً إن امتدحنا الأسد، لا نمتدح فيه الوحشية والافتراس، إنما القوة والشجاعة. وإذا شبَّهنا إنساناً بالأسد، فلا نقصد أنه حيوان من ذوات الأربع، وإنما نمتدحه على شجاعته وقوته. كذلك في مثل الوكيل الظالم، ينصبّ المديح على نقطة واحدة محددة هي الحكمة في الاستعداد للمستقبل، وليس على كل صفاته الأخرى. فنتعلَّم من مثَل الوكيل الظالم أن ذكاءنا في استخدام ما نملكه اليوم ذو أثرٍ عظيم على حالتنا المستقبلَة، وأن طريقة تصرُّفنا في ما نملكه الآن يعيِّن مصيرنا الأبدي. لهذا يجب أن نستعد ليوم الدينونة الذي سيُقال لنا فيه: «أَعْطِ حِسَابَ وَكَالَتِكَ».

وبعد أن انتهى المسيح من رواية المثل قدَّم أربعة تعليقات نتعلم منها أربعة دروس:

أولاً – أهمية الحكمة

قال المسيح تعليقاً على المثل: «أَبْنَاء هَذَا الدَّهْرِ أَحْكَمُ مِنْ أَبْنَاءِ النُّورِ فِي جِيلِهِمْ». وأبناء هذا الدهر هم الذين يسايرون العالم الحاضر الشرير الذي يريد الله أن ينقذنا منه (غلاطية 1: 4)، وقد ظهرت نعمته المخلِّصة لجميع الناس لتعلِّمنا أن ننكر الشهوات، ونعيش بالتقوى في هذا العالم الحاضر (تيطس 2: 12). وأبناء هذا الدهر يشبهون ديماس الذي ارتدَّ وترك خدمة الله لأنه أحبَّ العالم الحاضر الذي هو الحياة المناقضة لمبادئ ملكوت الله (2 تيموثاوس 4: 10).

أما أبناء النور فهُم الذين سمعوا قول المسيح: «مَا دَامَ لَكُمُ النُّورُ آمِنُوا بِالنُّورِ لِتَصِيرُوا أَبْنَاءَ النُّورِ» (يوحنا 12: 36) فخضعوا لهذا الأمر. وهم الذين يسلكون في النور كما أن الله نور، فيطهِّرهم دم المسيح من كل خطية (1يوحنا 1: 7). وقيل لهم: «كُنْتُمْ قَبْلاً ظُلْمَةً، وَأَمَّا الآنَ فَنُورٌ فِي الرَّبِّ. اسْلُكُوا كَأَوْلادِ نُورٍ.. جَمِيعُكُمْ أَبْنَاءُ نُورٍ وَأَبْنَاءُ نَهَارٍ. لَسْنَا مِنْ لَيْلٍ وَلا ظُلْمَةٍ» (أفسس 5: 8، 1تسالونيكي 5: 5).

ومع أن كل المؤمنين الحقيقيين هم أبناء الحياة الجديدة، إلا أن كثيرين منهم تعوزهم الحكمة في العمل للأمور الباقية، وتنقصهم الرؤية الواضحة ومعرفة الواجبات المطلوبة منهم. والرب بهذا المثل يبكّتنا بالحكمة التي عند أهل العالم، فإن كان أهل العالم (على الرغم من خطاياهم) لهم مثل هذه الحكمة في الماديات، فإن أبناء الله ينبغي أن يكونوا أكثر حكمةً في الروحيات. لذلك بعد أن مدح المسيح الوكيل الظالم على حكمته، قال مباشرة: «أَبْنَاء هَذَا الدَّهْرِ أَحْكَمُ مِنْ أَبْنَاءِ النُّورِ فِي جِيلِهِمْ».

وواضح أن المسيح لا يمدح غشَّ أبناء هذا الدهر واتجاهاتهم الفكرية والأخلاقية، فهُم مخادعون. بل يمدح ذكاءهم المبدع، وحكمتهم في التعامل مع أهل جيلهم، فإنهم يحتاطون لمستقبلهم كما لحاضرهم باستخدام مال

الظلم ليقيهم شرَّ الحاجة عندما يفنى مصدر أموالهم أو صحتهم أو مراكزهم. وأبناء هذا الدهر يقِظون، يتَّخذون قراراتهم بسرعة، وينتهزون الفُرص التي تسنح لهم ليكسبوا، ويُحسِنون استخدام ما عندهم وما حولهم من وسائل وأشخاص، ويعرفون كيف يسوِّقون بضاعتهم مع أنها باطلة، ويقدرون أن يخرجوا بسهولة من المآزق، ولا يحسبون وزناً للمخاطر والعوائق في سبيل تحقيق أهدافهم، ويسخِّرون جهدهم وطاقتهم في الوصول إلى ما يريدون.

ومع أن أبناء النور أمناء، وقد منحهم الرب فُرصاً كثيرة للشهادة وتخليص الخطاة وبناء الكنائس فكثيراً ما تفلت هذه الفرص من أيديهم، لأنهم يتواكلون على الله، ولا يبذلون الفكر والجهد والوقت والمال الكافي، أو ربما يخشون من فقدان مكانة وظيفية أو مادية إن هم تبعوا المسيح وعملوا للطعام الباقي لا البائد، وإن هم قاموا بواجب الكرازة للآخرين.

في هذا المثل يطالبنا المسيح بالنظر إلى حكمة أبناء العالم لنتعلم من حُسن استخدامهم للفرص، فنعمل مادام نهار كما أنه هو يعمل «لأَنَّنَا نَحْنُ عَمَلُهُ، مَخْلُوقِينَ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، قَدْ سَبَقَ اللهُ فَأَعَدَّهَا لِكَيْ نَسْلُكَ فِيهَا» (أفسس 2: 10). إنها ساعة الآن لنستيقظ من النوم ونعمل مشيئة الذي دعانا من الظلمة إلى نوره العجيب، ولا نخشى شيئاً، لأن الذي معنا أقوى من العالم وأسلحته، فنكون «هَادِمِينَ ظُنُوناً وَكُلَّ عُلْوٍ يَرْتَفِعُ ضِدَّ مَعْرِفَةِ اللهِ، وَمُسْتَأْسِرِينَ كُلَّ فِكْرٍ إِلَى طَاعَةِ الْمَسِيحِ» (2كورنثوس 10: 5).

يصوِّر أهل هذا الدهر الوهم كأنه حقيقة، ويقدِّم أبناء النور الحقائق وكأنها أوهام! يتحدَّث أهل هذا الدهر عن أمور مادية منظورة بينما يتحدث أبناء النور عن حقائق روحية بإيمان قائم على رجاءٍ غير منظور! ويبذل أهل هذا الدهر غاية جهدهم وشعارهم «من طلب العُلى سهر الليالي» بينما يعتبر أبناء النور الأمور الأبدية مضمونة بالضمان الأبدي، وسينالونها حتى لو تكاسلوا بزعم «أن الله غيور على عمله»! ويثق أبناء هذا الدهر في أسلحتهم الشريرة لأنها تفتك بأعدائهم أمام عيونهم، بينما لا يرى أبناء النور أعداءهم وأسلحتهم الروحية بعيون أجسادهم «فَإِنَّ مُصَارَعَتَنَا لَيْسَتْ مَعَ دَمٍ وَلَحْمٍ، بَلْ مَعَ الرُّؤَسَاءِ، مَعَ السَّلاَطِينِ، مَعَ وُلاَةِ الْعَالَمِ، عَلَى ظُلْمَةِ هَذَا الدَّهْرِ، مَعَ أَجْنَادِ الشَّرِّ الرُّوحِيَّةِ فِي السَّمَاوِيَّاتِ» (أفسس 6: 12). يكفي أن تقارن بين مجلة دنيوية ومجلة دينية، أو بين فيلم عالمي وفيلم مسيحي لترى الجهد والإبداع في الإنتاج العالمي الذي يفوق الإنتاج الديني بمراحل!

ولكن هل حقاً أبناء هذا الدهر حكماء؟ نعم، ولا! نعم، فهم حكماء في أمور «هذا الدهر» فقط، ولكنهم أغبياء في الأمور الروحية «لأَنَّهُمْ لَمَّا عَرَفُوا اللهَ لَمْ يُمَجِّدُوهُ أَوْ يَشْكُرُوهُ كَإِلَهٍ، بَلْ حَمِقُوا فِي أَفْكَارِهِمْ وَأَظْلَمَ قَلْبُهُمُ الْغَبِيُّ. وَبَيْنَمَا هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ حُكَمَاءُ صَارُوا جُهَلاَءَ» (رومية 1: 21، 22). أما أبناء النور فيجب أن يكونوا حكماء كالحيات مع احتفاظهم ببساطة الحمام (متى 10: 16)، ويعدنا الوحي أن من تعوزه حكمة فليطلب من الله، الذي يعطي الجميع بسخاء ولا يعيِّر، فسيُعطى له (يعقوب 1: 5).

لنكُن حكماء في أمور ديننا أكثر من حكمة أبناء هذا الدهر في أمور دنياهم.

ثانياً – أهمية المال

في تعليق ثانٍ على هذا المثل قال المسيح: «اصْنَعُوا لَكُمْ أَصْدِقَاءَ بِمَالِ الظُّلْمِ، حَتَّى إِذَا فَنِيتُمْ يَقْبَلُونَكُمْ فِي الْمَظَالِّ الأَبَدِيَّةِ». وهذا يعني أننا جميعاً وكلاء على ما منحه الله لنا، ولسنا مالكين. لقد أوصانا المسيح أن نستخدم المال لخدمة الملكوت، ولخير مستقبلنا، بأن نصنع لنا أصدقاء به حتى إذا فني، أو انتهت الحياة يكون لنا قبول في البيوت الأبدية.

قال بعض المفسرين إن المسيح سمَّى المال «مَالَ الظُّلْمِ» لأنها التسمية التي كانت تُطلَق على «غِنى العالم المادي» أو على «كُنُوزِ الشَّرِّ (التي) لا تَنْفَعُ» (أمثال 10: 2). على أن البعض قالوا إن المسيح قصد بالتسمية أن المال كثيراً ما يُجمَع ويُوزَّع بالظلم، وكثيراً ما يُستخدَم في الشر لا الخير، وبه نخطئ إلى الله وإلى أولاد الله. وقد يكون مال ظلم لأنه حُصِّل بطرق لا تحتمل نار الامتحان في اليوم الأخير.. كما أنه يظلم بعض الناس بأن يأسر قلوبهم حتى يعبدوه، فيهلكون. ولو أننا طلبنا من قطعة عملة أن تحكي تاريخ حياتها لسمعنا منها العَجَب! وقال البعض إن المقصود بمال الظلم ليس المال الحرام الذي يقتنيه الإنسان من الظلم أو من أية خطية أخرى، فهذا لا يقبله الله، لأنه يقول: «لا تُدْخِلْ أُجْرَةَ زَانِيَةٍ وَلا ثَمَنَ كَلْبٍ إِلَى بَيْتِ الرَّبِّ إِلَهِكَ» (تثنية 23: 18). فالله لا يقبل عمل الخير، الذي يأتي عن طريق الشر.. بل إن مال الظلم هو العشور التي لا يدفعها صاحبها لعمل الرب، فقد أعطاه مالاً، وأمره أن يدفع عشوره. فإذا لم تدفع العشور تكون قد ظلمت مستحقّيها، وتكون عندك «مال ظلم» إذ يقول الرب: «أَيَسْلُبُ الإِنْسَانُ اللَّهَ؟ فَإِنَّكُمْ سَلَبْتُمُونِي. فَقُلْتُمْ: بِمَ سَلَبْنَاكَ؟ فِي الْعُشُورِ وَالتَّقْدِمَةِ» (ملاخي 3: 8). بل يمكن أن نصف كل مال مكنوز عندنا بلا منفعة، بينما يحتاج إليه الفقراء، أنه «مال ظلم». ولكن عندما ندفع العشور لعمل الرب نعطي ما لله لله، وعندما نسدد ضرائبنا نعطي ما لقيصر لقيصر.

فلنكن أسخياء في العالم الحاضر، عملاً بوصية المسيح: «بِيعُوا مَا لَكُمْ وَأَعْطُوا صَدَقَةً. اعْمَلُوا لَكُمْ أَكْيَاساً لاَ تَفْنَى وَكَنْزاً لاَ يَنْفَدُ فِي السَّمَاوَاتِ، حَيْثُ لاَ يَقْرَبُ سَارِقٌ وَلاَ يُبْلِي سُوسٌ» (لوقا 12: 33). ولنستخدم كل ما نملك في خدمة ملكوت الله، فقد ائتمن الله المؤمنين على بعض غِنى العالم المادي، ويريدهم أن ينفقوه بسخاء وبأفضل الطرق، ليصنعوا به لهم «أصدقاء»، فإن الذي يعطي يربح الذي أخذ، فيقف الذي أخذ في صفِّ الذي أعطى، ويصبح من «إِخْوَةِ الْمَسِيحِ الأَصَاغِرِ».

فلنبذل مالنا في سبيل الخير، ولا نعش للعالم وغناه، لأن كليهما إلى فناء، ولننتبه إلى أن حياتنا الأرضية لا بد ستنتهي يوماً، كما يمكن أن أموالنا قد تضيع لسبب أو لآخَر. لذلك يجب أن نصنع لنا أصدقاء بمال الظلم فيكون لنا أجرٌ سماوي، ونجد القبول في «الْمَظَالِّ الأَبَدِيَّةِ» أي تكون لنا حياة أبدية في دار الخلود، التي مضى المسيح ليُعدَّ لنا مكاناً فيها (يوحنا 14: 2). وعندما نردد قول الملك حزقيا: «مَسْكَنِي قَدِ انْقَلَعَ وَانْتَقَلَ عَنِّي كَخَيْمَةِ الرَّاعِي" (إشعياء 38: 12) نثق أننا سنصل إلى مكان أفضل. «لأَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ نُقِضَ بَيْتُ خَيْمَتِنَا الأَرْضِيُّ، فَلَنَا فِي السَّمَاوَاتِ بِنَاءٌ مِنَ اللهِ، بَيْتٌ غَيْرُ مَصْنُوعٍ بِيَدٍ، أَبَدِيٌّ» (2كورنثوس 5: 1).

هناك عالمٌ بعد هذا العالم هو «العالم الآتي» ننال فيه جزاء ما فعلناه في هذا العالم. وعندما نترك محل إقامتنا المؤقَّت في هذه الأرض، ونترك أصدقاءنا الفانين، تصبح السماء بيتنا الدائم، ولنا فيها أصدقاء باقون من فقراء أنجدناهم، وحزانى عزَّيناهم، وأطفال أسعدناهم، يقبلوننا في المظال الأبدية. هناك «الْمَلِكُ بِبَهَائِهِ تَنْظُرُ عَيْنَاكَ» (إشعياء 33: 17). ويقول الملك لنا: «تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي، رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، 35لأَنِّي جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِي.. فَيُجِيبُهُ الأَبْرَارُ حِينَئِذٍ: يَا رَبُّ، مَتَى رَأَيْنَاكَ جَائِعاً فَأَطْعَمْنَاكَ؟.. فَيُجِيبُ الْمَلِكُ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَنَّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هَؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ فَبِي فَعَلْتُمْ» (متى 25: 34–40). «لأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ حَتَّى يَنْسَى عَمَلَكُمْ وَتَعَبَ الْمَحَبَّةِ الَّتِي أَظْهَرْتُمُوهَا نَحْوَ اسْمِهِ، إِذْ قَدْ خَدَمْتُمُ الْقِدِّيسِينَ وَتَخْدِمُونَهُمْ» (عبرانيين 6: 10).

ثالثاً – أهمية الأمانة

وأضاف المسيح تعليقاً ثالثاً على المثل، فقال: «اَلأَمِينُ فِي الْقَلِيلِ أَمِينٌ أَيْضاً فِي الْكَثِيرِ، وَالظَّالِمُ فِي الْقَلِيلِ ظَالِمٌ أَيْضاً فِي الْكَثِيرِ. فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا أُمَنَاءَ فِي مَالِ الظُّلْمِ، فَمَنْ يَأْتَمِنُكُمْ عَلَى الْحَقِّ؟ وَإِنْ لَمْ تَكُونُوا أُمَنَاءَ فِي مَا هُوَ لِلْغَيْرِ، فَمَنْ يُعْطِيكُمْ مَا هُوَ لَكُمْ؟». وهو درس تناوله المسيح في عدة أمثال، منها مَثل العبيد العشرة الذين أعطاهم سيدهم عشرة أمْناء ليتَّجروا بها، «فَإِنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ (أمانة) يُعْطَى، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ (أمانة) فَالَّذِي عِنْدَهُ يُؤْخَذُ مِنْهُ» (لوقا 19: 17، 18، 26).

والأمانة الحقيقية لا تفرّق بين العمل الصغير والعمل الكبير. بل إن الأمانة في الأمور الصغيرة أعظم منها في الكبيرة، والحاجة إليها أكبر، لأن الناس يهتمون عادة بالأمور العظيمة لأنها ظاهرة للعيون أكثر من اهتمامهم بالأمور الصغيرة التي لا يلتفت إليها كثيرون، فيتصرف الإنسان في الأمور الصغيرة على سجيته، وهذا يُظهِر سلوكه الحقيقي.

والأمانة في الأمور الصغيرة تجهِّزنا للقيام بالأمور الكبيرة. لقد ائتمننا الله على الصحة والعائلة والمواهب والوقت والعمل والمال، وهو ينتظر منا أن نستخدم هذه كلها لخدمة المحتاجين، ليحقق مقاصده الإلهية، وفي قمتها أنه يريد الجميع يخلصون وإلى معرفة الحق يُقبِلون (1تيموثاوس 2: 4). وعلى قدر أمانتنا في الأمور الوقتية يأتمننا الله على الأمور الأبدية. وبقدر أمانتنا على الزائل يأتمننا على الباقي.

رابعاً – أهمية القلب الموحَّد

وكان التعليق الرابع للمسيح على هذا المثل قوله: «لاَ يَقْدِرُ خَادِمٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ، لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الآخَرَ، أَوْ يُلاَزِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الآخَرَ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللهَ وَالْمَالَ». وفي هذا العالم نسمع نداء سيدين: الله السيد الحقيقي الرحيم، والمال الذي وهبه الله لنا ليكون خادمنا. وقد نتحول إلى عبيد له ويصير هو السيد. وليس المال بالضرورة ذهباً، لكنه قد يكون النجاح أو الوقت أو الإمكانيات أو السلطة أو العائلة أو الوظيفة.

ولا بد أن نخضع لسيد واحد، لأننا لا نقدر أن نخدم سيدين، فلا يقدر أحدٌ أن يخدم الله والمال، لأن الله يطالبنا بالتوزيع «أَعْطُوا تُعْطَوْا» (لوقا 6: 38) بينما المال يطالبنا باكتنازه. والله يطالبنا بالتفكير في غيرنا، بينما المال يطالبنا بالتفكير في نفوسنا. فيجب أن نختار لأنفسنا اليوم من نخدم، والحكيم هو الذي يصلي: «عَلِّمْنِي يَا رَبُّ طَرِيقَكَ، أَسْلُكْ فِي حَقِّكَ. وَحِّدْ قَلْبِي لِخَوْفِ اسْمِكَ» (مزمور 86: 11).

عندما استولت محبة المسيح على قلوب المسيحيين الأوَّلين باعوا كل ما عندهم وتقاسموا ثمنه، فلم يكن أحدٌ بينهم محتاجاً (أعمال 2: 44، 45 و4: 34). ولم تكن تلك المشاركة المالية لمجرد دوافع إنسانية، ولا لتجتذب الفقراء للكنيسة، ولو أنها لا بد فعلت هذا. ولكنها كانت للشركة بين المؤمنين «لِكَيْ تَكُونَ فِي هَذَا الْوَقْتِ فُضَالَتُكُمْ لإِعْوَازِهِمْ، كَيْ تَصِيرَ فُضَالَتُهُمْ لإِعْوَازِكُمْ، حَتَّى تَحْصُلَ الْمُسَاوَاةُ» (2كورنثوس 8: 14). فهكذا علَّمتنا نعمة المسيح «أَنَّهُ مِنْ أَجْلِكُمُ افْتَقَرَ وَهُوَ غَنِيٌّ، لِكَيْ تَسْتَغْنُوا أَنْتُمْ بِفَقْرِهِ» (2كورنثوس 8: 9).

فاصنع لك أصدقاء «بمال الظلم». أعطه للمحتاجين إليه، وسدّد به أعوازهم، يصبحوا لك أصدقاء، ويصلّوا من أجلك، ويسمع الله دعاءهم، ويباركك، فتعطي أكثر وأكثر.

سؤالان

1 – ما معنى «مال الظلم»؟

2 – لماذا مدح المسيح الوكيل الظالم؟ وماذا نتعلم من هذا؟

4- ضرورة الأمانة

(جـــ) الأمانة للمحتاجين

مثل الغني ولعازر

19«كَانَ إِنْسَانٌ غَنِيٌّ وَكَانَ يَلْبَسُ الأُرْجُوانَ وَالْبَزَّ، وَهُوَ يَتَنَعَّمُ كُلَّ يَوْمٍ مُتَرَفِّهاً. 20وَكَانَ مِسْكِينٌ اسْمُهُ لِعَازَرُ الَّذِي طُرِحَ عِنْدَ بَابِهِ مَضْرُوباً بِالْقُرُوحِ، 21وَيَشْتَهِي أَنْ يَشْبَعَ مِنَ الْفُتَاتِ السَّاقِطِ مِنْ مَائِدَةِ الْغَنِيِّ. بَلْ كَانَتِ الْكِلاَبُ تَأْتِي وَتَلْحَسُ قُرُوحَهُ. 22فَمَاتَ الْمِسْكِينُ وَحَمَلَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ إِلَى حِضْنِ إِبْرَاهِيمَ. وَمَاتَ الْغَنِيُّ أَيْضاً وَدُفِنَ. 23فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ فِي الْهَاوِيَةِ وَهُوَ فِي الْعَذَابِ، وَرَأَى إِبْرَاهِيمَ مِنْ بَعِيدٍ وَلِعَازَرَ فِي حِضْنِهِ، 24فَنَادَى: يَا أَبِي إِبْرَاهِيمُ، ارْحَمْنِي وَأَرْسِلْ لِعَازَرَ لِيَبُلَّ طَرَفَ إِصْبِعِهِ بِمَاءٍ وَيُبَرِّدَ لِسَانِي، لأَنِّي مُعَذَّبٌ فِي هذَا اللهِيبِ. 25فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: يَا ابْنِي، اذْكُرْ أَنَّكَ اسْتَوْفَيْتَ خَيْرَاتِكَ فِي حَيَاتِكَ وَكَذَلِكَ لِعَازَرُ الْبَلاَيَا. وَالآنَ هُوَ يَتَعَزَّى وَأَنْتَ تَتَعَذَّبُ. 26وَفَوْقَ هذَا كُلِّهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ هُوَّةٌ عَظِيمَةٌ قَدْ أُثْبِتَتْ، حَتَّى إِنَّ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْعُبُورَ مِنْ هَهُنَا إِلَيْكُمْ لاَ يَقْدِرُونَ، وَلاَ الَّذِينَ مِنْ هُنَاكَ يَجْتَازُونَ إِلَيْنَا. 27فَقَالَ: أَسْأَلُكَ إِذاً يَا أَبَتِ أَنْ تُرْسِلَهُ إِلَى بَيْتِ أَبِي، 28لأَنَّ لِي خَمْسَةَ إِخْوَةٍ حَتَّى يَشْهَدَ لَهُمْ لِكَيْلاَ يَأْتُوا هُمْ أَيْضاً إِلَى مَوْضِعِ الْعَذَابِ هذَا. 29قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: عِنْدَهُمْ مُوسَى وَالأَنْبِيَاءُ. لِيَسْمَعُوا مِنْهُمْ. 30فَقَالَ: لاَ يَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ. بَلْ إِذَا مَضَى إِلَيْهِمْ وَاحِدٌ مِنَ الأَمْوَاتِ يَتُوبُونَ. 31فَقَالَ لَهُ: إِنْ كَانُوا لاَ يَسْمَعُونَ مِنْ مُوسَى وَالأَنْبِيَاءِ وَلاَ إِنْ قَامَ وَاحِدٌ مِنَ الأَمْوَاتِ يُصَدِّقُونَ» (لوقا 16: 19-31).

مناسبة رواية المثل:

بعد أن روى المسيح مثل «الوكيل الظالم» استهزأ الفريسيون الذين كانوا يسمعونه بالمسيح، لأنهم كانوا محبين للمال، ولأنهم كانوا يبررون أنفسهم أمام الناس (لوقا 16: 14، 15). فأوضح المسيح لهم أن شريعة الله ثابتة إلى الأبد، وأنها تدينهم، وأن باب الملكوت قد انفتح لكل بعيد وقريب يقصده ويطلبه بكل قلبه، ويغتصب نفسه إليه بأن يشد نفسه من الخطية ومن العالم، ويُقبِل إلى هذا الملكوت المفتوح له بالنعمة (لوقا 16: 16، 17). ثم روى مثل «الغني ولعازر» الذي يوضح أن الله رفض الغني الذي برَّر نفسه بأنه «ابن إبراهيم» وقبل لعازر المسكين وبرَّره.

لم يكن الغني (في هذا المثل) سارقاً ولا قاتلاً، ولا بذَّر ماله بعيش مسرف. لكن خطأه أنه لم يصنع له أصدقاء «بمال الظلم» وأهمل الفقير الملقى عند بابه. كان يعرف أن يعمل حسناً ولكنه لم يفعل، فصارت هذه خطيته (يعقوب 4: 17). وكان الفقير صابراً و«هَا نَحْنُ نُطَوِّبُ الصَّابِرِينَ» (يعقوب 5: 11). وقد أراد المسيح أن يعلّمنا أن سوء استعمال الإنسان للمال في العالم الحاضر يوقع به الضرر في العالم الآتي، وأن اهتمام الإنسان بمستقبله أهم من اهتمامه بحاضره.

وقد هزَّ هذا المثل قلب اللاهوتي والطبيب الألماني ألبرت شوايتزر (1875-1965)، الحاصل على درجة الدكتوراه في اللاهوت، والفلسفة، والطب، مع دكتوراه فخرية في الموسيقى. كان يملك ما يتمنى كل إنسان أن يملكه. لكنه تأمل حاجة الفقراء، وخاف أن يكون مصيره كمصير الغني، فسافر إلى الجابون في غرب أفريقيا عام 1913 وبنى مستشفى بيديه ليخدم المرضى والمحتاجين وينفق عليهم ويعالجهم ويعظهم.

وقد لا نكون مثل شوايتزر أغنياء في المال أو في العِلم. لكننا قد نكون أغنياء في الصحة، والوقت، والرحمة، والمواهب، التي أنعم الله بها علينا. ففي حياة كل واحد منا غناه الخاص، فيمكن أن نصف أنفسنا بأننا «كَفُقَرَاءَ وَنَحْنُ نُغْنِي كَثِيرِينَ. كَأَنْ لاَ شَيْءَ لَنَا وَنَحْنُ نَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ» (2كورنثوس 6: 10). والغِنى الأعظم هو

الخلاص بالفداء المجاني، والمحبة الإلهية التي تنسكب في قلوبنا بالروح القدس المُعطى لنا (رومية 5: 5). فيجب أن نشارك غيرنا في الخلاص والمحبة متذكرين أنه «مَجَّاناً أَخَذْتُمْ، مَجَّاناً أَعْطُوا» (متى 10: 8).
يتحدَّث هذا المثل عن أمور حدثت في هذا العالم (آيات 19–22)، وأمور حدثت في العالم الآخر (آيات 23–31). فقد أزاح المسيح في هذا المثل الستار عن العالم الآتي.

أولاً – شخصان في هذا العالم

1 – غني يتنعَّم:

لم يذكر المسيح اسمه، فهو نموذج لكثيرين يشبهونه. إنه مشهور عند أهل الأرض، يعيش لنفسه ليُسعد نفسه. لم يلتفت إلى وجود فقير مريض أمام بابه، مع أن الشريعة أوصته: «إِنْ كَانَ فِيكَ فَقِيرٌ أَحَدٌ مِنْ إِخْوَتِكَ فِي أَحَدِ أَبْوَابِكَ فِي أَرْضِكَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ، فَلا تُقَسِّ قَلْبَكَ، وَلا تَقْبِضْ يَدَكَ عَنْ أَخِيكَ الْفَقِيرِ» (تثنية 15: 7، 8). ولم يكرم الرب ولا أخاه، مع أن كتب الأنبياء قالت إن العبادة المقبولة هي «أَنْ تَكْسِرَ لِلْجَائِعِ خُبْزَكَ وَأَنْ تُدْخِلَ الْمَسَاكِينَ التَّائِهِينَ إِلَى بَيْتِكَ؟ إِذَا رَأَيْتَ عُرْيَاناً أَنْ تَكْسُوَهُ وَأَنْ لاَ تَتَغَاضَى عَنْ لَحْمِكَ» (إشعياء 58: 6، 7).

والأغلب أن هذا الغني كان يظن أنه مادام له كثير فإن حياته من أمواله، ونسي أنه سيأتي يوم يطالبه فيه الله بحساب وكالته التي لم يكن أميناً عليها. مسكينٌ، تمَّ فيه القول: «يَصْدُّونَ سَبِيلَ الْبَائِسِينَ» (عاموس 2: 7) فصار نصيبه: «اذْهَبُوا عَنِّي يَا مَلاَعِينُ إِلَى النَّارِ الأَبَدِيَّةِ الْمُعَدَّةِ لإِبْلِيسَ وَمَلاَئِكَتِهِ، لأَنِّي جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمُونِي. عَطِشْتُ فَلَمْ تَسْقُونِي.. بِمَا أَنَّكُمْ لَمْ تَفْعَلُوهُ بِأَحَدِ هَؤُلاَءِ الأَصَاغِرِ فَبِي لَمْ تَفْعَلُوا» (متى 25: 41–46).

عاش هذا الغني متنعِّماً، فكانت ملابسه الخارجية من الأرجوان المستورد من مدينة صور، وملابسه الداخلية من البز، وهو الكتان النقي المستورد من مصر. ولم تكن هذه ملابس المناسبات، بل ملابس كل يوم. وكان مترفِّهاً بأطايب الطعام، يستخدم الخبز لتنظيف يديه من الدهون كعادة أهل زمانه من الأثرياء، ويلقي به لكلابه تحت المائدة.. ولكن خطيته لم تكن رفاهية الملابس والطعام، فإن إبراهيم وداود وسليمان ترفَّهوا، بل كانت أنه كنز لنفسه ولم يرحم أخاه المحتاج، ولم يخطر بباله يوماً أن يعطف على المسكين الممزق الثياب التي تكشف عن قروحه التي تغري الكلاب بلحسها، كأنه جثة ميتة.

2 – فقير محتاج:

ذكر المسيح أن اسم الفقير كان «لعازر» والاسم يدل على الشخصية، ومعنى اسمه «الرب عوني». كان فقيراً في مكان إقامته مطروحاً عند باب الغني، لعله يراه فيعطف عليه. وكان مريضاً مضروباً بالقروح التي تلحسها الكلاب. أما طعامه فكان أقل من الفتات الساقط الذي كانت الكلاب تنافسه في التهامه.

ومن نهايته المجيدة في حضن إبراهيم نستنتج أنه لا بد تضرَّع لله أكثر من مرة أن يفارقه المرض، فتجيئه الإجابة: «تَكْفِيكَ نِعْمَتِي، لأَنَّ قُوَّتِي فِي الضُّعْفِ تُكْمَلُ» (2كورنثوس 12: 9). فعاش بالرجاء في الحياة الآتية، أما حياته على الأرض فعرف أنها بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل. كان فقيراً وجائعاً وعرياناً لكنه لم يشكُ من فقره ولا تذمر من جوعه وعريه، وكأنه يقول مع النبي حبقوق: «فَمَعَ أَنَّهُ لاَ يُزْهِرُ التِّينُ، وَلاَ يَكُونُ حَمْلٌ فِي الْكُرُومِ. يَكْذِبُ عَمَلُ الزَّيْتُونَةِ، وَالْحُقُولُ لاَ تَصْنَعُ طَعَاماً. يَنْقَطِعُ الْغَنَمُ مِنَ الْحَظِيرَةِ، وَلاَ بَقَرَ فِي الْمَذَاوِدِ، 18فَإِنِّي أَبْتَهِجُ بِالرَّبِّ، وَأَفْرَحُ بِإِلَهِ خَلاَصِي» (حبقوق 3: 17، 18).

3 – موت الفقير:

مات الفقير قبل أن يموت الغني، فلكل إنسان ميعاد حدده الله ينتقل فيه من هذا العالم إلى العالم الآتي، كما يقول المسيح: «أَنَا أَمْضِي لأُعِدَّ لَكُمْ مَكَاناً، وَإِنْ مَضَيْتُ وَأَعْدَدْتُ لَكُمْ مَكَاناً آتِي أَيْضاً وَآخُذُكُمْ إِلَيَّ، حَتَّى حَيْثُ أَكُونُ أَنَا تَكُونُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً» (يوحنا 14: 2، 3).

وحملت الملائكةُ لعازر إلى حضن إبراهيم، فهم أرواحٌ يخدمون العتيدين أن يرثوا الخلاص (عبرانيين 1: 14). و«الْحِضْنُ» هو مكان الشرف (يوحنا 13: 23) والقديسون يتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب (متى 8: 11)، فانتقل لعازر من بؤس المرض والفاقة إلى احتفال فرح. ولم يذكر المسيح شيئاً عن دفنه، فالأغلب أن جسده ووري التراب في مدافن الصدقة. تُرى هل ردَّد قبل موته صلاة سمعان الشيخ: «الآنَ تُطْلِقُ عَبْدَكَ يَا سَيِّدُ حَسَبَ قَوْلِكَ بِسَلاَمٍ» (لوقا 2: 29)، أو صلاة استفانوس: «أَيُّهَا الرَّبُّ يَسُوعُ، اقْبَلْ رُوحِي» (أعمال 7: 59)؟ سواء ردَّد أم لم يردد، فقد كانت نفسه متعلِّقةً بإلهه.

4 – موت الغني:

مات الغني ودُفن باحترام من البشر، ولكن هاوية العذاب كانت تنتظره بعد أن ضيَّع كل فرصة للتوبة، مستهيناً بغنى لطف الله وإمهاله وطول أناته، غير عالم أنه كان يريد أن يقوده للتوبة. لكن من أجل قساوته وقلبه غير التائب، ذخَّر لنفسه غضباً في يوم الغضب، واستعلان دينونة الله العادلة (رومية 2: 4، 5). لقد تبدَّل حاله تماماً. كان إبليس قد أغواه فظنَّ أن حاضره السعيد سيستمر سعيداً، وأن نجاحه الأرضي سيستمر نجاحاً. وكان الواجب أن ينتبه لأبديته ويبني سعادته ونجاحه على الأساس الحقيقي، إذ لا يستطيع أحد أن يضع أساساً غير الذي وُضع، الذي هو ربنا يسوع المسيح (1كورنثوس 3: 11).

ثانياً – شخصان في العالم الآخر

1 – آخرة الغني:

(أ) موضع العذاب: استوفى الغني خيراته في حياته الأرضية، وحان وقت المجازاة في هاوية العذاب حيث الدود لا يموت والنار لا تُطفأ، وحيث لا ينفع أصدقاء ولا مال ولا نفوذ «لأَنَّهُ مَاذَا يَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟ أَوْ مَاذَا يُعْطِي الإِنْسَانُ فِدَاءً عَنْ نَفْسِهِ؟» (متى 16: 26).

(ب) رجاء شخصي: هذه هي الطِّلبة الوحيدة المذكورة في الكتاب المقدس التي وُجِّهت إلى قديس في السماء، فقد استرحم الغني في العذاب أباه إبراهيم من أجل نفسه (آيات 23–26). فجأةً تذكر أن إبراهيم أبوه حسب الجسد، فتوجَّه إليه طالباً تدخُّله رحمةً به، ولكنه لم يكن ابن إيمان إبراهيم، لأن الإيمان لا يورَّث، وقد قال يوحنا المعمدان لليهود: «وَلاَ تَفْتَكِرُوا أَنْ تَقُولُوا فِي أَنْفُسِكُمْ: لَنَا إِبْرَاهِيمُ أَباً، لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ أَنْ يُقِيمَ مِنْ هَذِهِ الْحِجَارَةِ أَوْلاَداً لإِبْرَاهِيمَ» (متى 3: 9). رأى إبراهيم «من بعيد» كما عاش في الأرض بعيداً روحياً عن إيمان إبراهيم، فقال له إنه معذَّب جسدياً في اللهيب، ونفسياً وهو يرى الأمجاد التي يتمتع بها لعازر ولا يقدر هو أن ينالها.

ورجاء الغني يعلِّمنا أن السماء والجحيم مكانان، تبقى ذاكرة الإنسان فيهما قوية، كما يكون منطقه فيهما سليماً، فيتذكر الإنسان ما عمله في حياته شراً كان أم خيراً، ويدرك أين هو وما حالته. لقد تعرَّف الغني في عذابه على الفقير في نعيمه مع أن هيئته تغيَّرت من القروح إلى جمال حقيقي نتيجة الوجود في محضر الله.

(جـ) جواب إبراهيم: جاء استرحام الغني بعد فوات الأوان، فقد كان مثل العذارى الجاهلات اللواتي وصلن بعد أن أُغلق الباب. وكان كرماً من إبراهيم أن يدعوه «ابني» وهي بنوَّة الجسد التي يتمتع بها كما يتمتع بها

لعازر الفقير. ولكن ملكوت السماوات «يشبه شَبَكَةً مَطْرُوحَةً فِي الْبَحْرِ وَجَامِعَةً مِنْ كُلِّ نَوْعٍ. فَلَمَّا امْتَلأَتْ.. جَمَعُوا الْجِيَادَ إِلَى أَوْعِيَةٍ، وَأَمَّا الأَرْدِيَاءُ فَطَرَحُوهَا خَارِجاً» (متى 13: 47، 48).

وذكَّر إبراهيمُ الغنيَّ بأنه استوفى خيراته في الحياة الدنيا. لقد منحه الله خيرات ليلتفت إلى المعطي الجواد ولكنه لم يلتفت، ووصلته دعواتٌ متكررة للتوبة ولكنه لم يتُب، وكانت له فرص فعل الخير ولكنه لم يفعل. فلم يكن له الحق أن ينتظر بعد هذا شيئاً من البركات الإلهية، لأن زمن نوالها قد مضى. لقد زرع للجسد، فلم يبقَ له إلا أن يحصد فساداً (غلاطية 6: 8). وقيل له: «وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الأَغْنِيَاءُ، لأَنَّكُمْ قَدْ نِلْتُمْ عَزَاءَكُمْ» (لوقا 6: 24).

وقال إبراهيم إن لعازر يتعزى، فالسماء مكان الفرح حيث المؤمنون « لَنْ يَجُوعُوا بَعْدُ وَلَنْ يَعْطَشُوا بَعْدُ.. لأَنَّ الْحَمَلَ الَّذِي فِي وَسَطِ الْعَرْشِ يَرْعَاهُمْ، وَيَقْتَادُهُمْ إِلَى يَنَابِيعِ مَاءٍ حَيَّةٍ، وَيَمْسَحُ اللهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عُيُونِهِمْ» (رؤيا 7: 16، 17). وهناك هوَّة تفصل الغني عن لعازر. ولا يوجد طريق بين السماء وجهنم، فالسماء مكان سكنى الله مع الملائكة والقديسين، وجهنم معدة لإبليس وجنوده. وفرصة الخلاص قاصرة على الحياة الدنيا، حيث تساوي رحمة الرب بين الغني والفقير، والبار والفاجر، وتقدم لجميعهم فرصة التوبة وعمل الخير.

(د) طلب عائلي: لم يلقَ الغني استجابةً لطلبه الشخصي، وعرف مصيره المظلم، وتغيَّر تقييمه للأمور، فأراد أن تتغيَّر حياة إخوته الخمسة الذين لا يزالون يعيشون على الأرض، حتى لا يلقوا نفس مصيره المرعب، فاستعطف أباه إبراهيم من أجل إخوته بأن يذهب لعازر إليهم ليقدم لهم النصح (آيات 27–31).

(هـ) جواب إبراهيم: رفض إبراهيم الطلب لأن الإخوة الخمسة عندهم توراة موسى وكتابات الأنبياء، وفيها رسالة الرب الواضحة التي تعلن لهم فكر الرب وطريق خلاصهم وربح الحياة الأبدية. وهناك أمل لكل خاطئ ينتبه للإعلان الإلهي ويطيعه، فهو يحذر من الجحيم، ويبرهن الحب الإلهي، فإنّ «نَامُوسُ الرَّبِّ كَامِلٌ يَرُدُّ النَّفْسَ. شَهَادَاتُ الرَّبِّ صَادِقَةٌ تُصَيِّرُ الْجَاهِلَ حَكِيماً.. خَوْفُ الرَّبِّ نَقِيٌّ ثَابِتٌ إِلَى الأَبَدِ. أَحْكَامُ الرَّبِّ حَقٌّ عَادِلَةٌ كُلُّهَا» (مزمور 19: 7، 9). ولكلمة الله صوت عال، ولها قوة وسلطان يقول الرب عنها: «أَلَيْسَتْ هَكَذَا كَلِمَتِي كَنَارٍ يَقُولُ الرَّبُّ، وَكَمِطْرَقَةٍ تُحَطِّمُ الصَّخْرَ؟» (إرميا 23: 29). «لأَنَّ كَلِمَةَ اللهِ حَيَّةٌ وَفَعَّالَةٌ، وَأَمْضَى مِنْ كُلِّ سَيْفٍ ذِي حَدَّيْنِ، وَخَارِقَةٌ إِلَى مَفْرَقِ النَّفْسِ وَالرُّوحِ وَالْمَفَاصِلِ وَالْمِخَاخِ، وَمُمَيِّزَةٌ أَفْكَارَ الْقَلْبِ وَنِيَّاتِهِ» (عبرانيين 4: 12). وهي الكلمة التي في متناول يد وأذن كل إنسان، و«مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ، فَلْيَسْمَعْ» (متى 13: 9).

(و) الغني يكرر طلبه: اختلف الغني وهو في الهاوية مع أبيه الجسدي، وقال: «لا يَا أَبِي إِبْرَاهِيمُ».. قضى هذا الغني حياته في عصيان لإيمان إبراهيم، وهو لازال يعتقد أن فكره أصحُّ من فكر خليل الله إبراهيم، فقال إن قيامة لعازر من الموت وذهابه إلى الإخوة الخمسة واعظاً سيقنعهم بالتوبة.

(ز) جواب إبراهيم: شرح إبراهيم لابنه الجسدي أن الوحي أقوى من المعجزة. وهو ما قاله المسيح عن سلطة الوحي وقوته: «فَتِّشُوا الْكُتُبَ لأَنَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ لَكُمْ فِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً، وَهِيَ الَّتِي تَشْهَدُ لِي. وَلاَ تُرِيدُونَ أَنْ تَأْتُوا إِلَيَّ لِتَكُونَ لَكُمْ حَيَاةٌ.. لاَ تَظُنُّوا أَنِّي أَشْكُوكُمْ إِلَى الآبِ. يُوجَدُ الَّذِي يَشْكُوكُمْ وَهُوَ مُوسَى الَّذِي عَلَيْهِ رَجَاؤُكُمْ. لأَنَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَ مُوسَى لَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي، لأَنَّهُ هُوَ كَتَبَ عَنِّي. فَإِنْ كُنْتُمْ لَسْتُمْ تُصَدِّقُونَ كُتُبَ ذَاكَ، فَكَيْفَ تُصَدِّقُونَ كَلاَمِي؟» (يوحنا 5: 39، 40، 45–47).

أقام المسيح لعازر من قبره بعد أن مات بأربعة أيام، فلم يؤمن رؤساء الكهنة ولم يتوبوا، بل تشاوروا ليقتلوا لعازر، لأن يهوداً كثيرين كانوا يرونه حياً بعد موته فيؤمنون بالمسيح الذي أقامه، فأرادوا أن يلاشوا برهان

المعجزة (يوحنا 12: 10، 11)! وأظهر المسيح نفسه حياً بعد قيامته ببراهين كثيرة، ومع ذلك لم يؤمن به كثيرون (أعمال 1: 3).

إن وسائط النعمة التي منحها الله للناس تكفي لتنويرهم، دون حاجة إلى المعجزات، فالمعجزة تُذهِل ولكنها لا تغيِّر، وهي تحدث انبهاراً، لكنها لا تبكت إنساناً ليتوب. القوة قوية أما المحبة فتغلب. هناك قوة في المعجزة لكن هناك محبة في الصليب.

2- آخرة الفقير:

بدأ تكريم الفقير من لحظة موته، فقد حملته الملائكة إلى حضن إبراهيم «لأَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ نُقِضَ بَيْتُ خَيْمَتِنَا الأَرْضِيُّ، فَلَنَا فِي السَّمَاوَاتِ بِنَاءٌ مِنَ اللهِ، بَيْتٌ غَيْرُ مَصْنُوعٍ بِيَدٍ، أَبَدِيٌّ.. فَنَثِقُ وَنُسَرُّ بِالأَوْلَى أَنْ نَتَغَرَّبَ عَنِ الْجَسَدِ وَنَسْتَوْطِنَ عِنْدَ الرَّبِّ» (2كورنثوس 5: 1، 8). «هُوَذَا مَسْكَنُ اللهِ مَعَ النَّاسِ، وَهُوَ سَيَسْكُنُ مَعَهُمْ، وَهُمْ يَكُونُونَ لَهُ شَعْباً. وَاللهُ نَفْسُهُ يَكُونُ مَعَهُمْ إِلَهاً لَهُمْ» (رؤيا 21: 3).

وبدأت تعزيته لأنه انتظر الرب وصبر له، فمنحه جسداً جديداً ممجَّداً بلا قروح ولا مرض، فهو «الَّذِي سَيُغَيِّرُ شَكْلَ جَسَدِ تَوَاضُعِنَا لِيَكُونَ عَلَى صُورَةِ جَسَدِ مَجْدِهِ، بِحَسَبِ عَمَلِ اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يُخْضِعَ لِنَفْسِهِ كُلَّ شَيْءٍ» (فيلبي 3: 21). ويحق للعازر أن يقول مع الرسول بولس: «قَدْ جَاهَدْتُ الْجِهَادَ الْحَسَنَ، أَكْمَلْتُ السَّعْيَ، حَفِظْتُ الإِيمَانَ، وَأَخِيراً قَدْ وُضِعَ لِي إِكْلِيلُ الْبِرِّ، الَّذِي يَهَبُهُ لِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الرَّبُّ الدَّيَّانُ الْعَادِلُ، وَلَيْسَ لِي فَقَطْ، بَلْ لِجَمِيعِ الَّذِينَ يُحِبُّونَ ظُهُورَهُ أَيْضاً» (2تيموثاوس 4: 7، 8).

فأين ستكون في الآخرة؟ إن باب التوبة مفتوح لك الآن.

سؤالان

1 - اشرح الأسباب التي جعلت الملائكة يحملون لعازر إلى حضن إبراهيم.

2 - ماذا كانت طلبتا الغني من إبراهيم، ولماذا رفضهما إبراهيم؟

ممسابقة الكتاب

1 – لماذا يدعو المؤمن الرب سيده، ويدعو نفسه عبده؟

2 – اذكر ثلاثة أمور تتطلبها خدمتنا لله.

3 – لماذا يكره اليهود السامريين؟

4 – بعد دراسة «مثل السامري الصالح» اشرح معنى قول الله «أريد رحمة لا ذبيحة».

5 – اذكر ثلاث فوائد للكرم، وما يعنيه هذا لك اليوم.

6 – لماذا كنا نودُّ أن يكون لهذا الأب ابن ثالث؟ أو ما هو التغيير المطلوب في الابنين الأول والثاني؟

7 – ما هي مسؤوليات رب البيت من نحو أهل البيت، وكيف ترى الله «ربَّ بيت» العالم؟

8 – ما هو الفرق بين إرسالية العبيد وإرسالية الابن؟

9 – لماذا رفض الله صلاة الفريسي، ولماذا قبل صلاة العشار؟

10 – ما معنى كلمة «كفارة» اذكر أساس التكفير عن الخطية.

11 – لماذا يقيِّم معظم الناس نفوسهم بأعظم من واقعهم؟

12 – اذكر ثلاثة أمور تساعد الإنسان أن يضع نفسه.

13– ما هي مناسبة رواية مثَل «العبد الذي لم يرحم»؟

14 – لماذا يجب أن نغفر لمن يسيء إلينا؟

15 – لماذا تظن رفع الأخ الشاكي شكواه للمسيح بخصوص الميراث؟ اذكر احتمالين.

16 – ما هو الحل الذي قدمه المسيح للأخ الشاكي؟

17 – ما معنى «مال الظلم»؟

18 – لماذا مدح المسيح الوكيل الظالم؟ وماذا نتعلم من هذا؟

19 – اشرح الأسباب التي جعلت الملائكة يحملون لعازر إلى حضن إبراهيم.

20 – ماذا كانت طلبتا الغني من إبراهيم، ولماذا رفضهما إبراهيم؟